

كناسة الدكتور

إعداد ومراجعة
فؤاد دارة



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي طحي
القاهرة

کناستالرکان

الاخراج القلى : سهىر معطى

مؤلفات يحيى حقي

٢٨

كناسة المكان

المقالات الأدبية - ٩

إعداد ومراجعة
فؤاد دودة



موسسة المستندة العتامة لآل كسابة

١٩٩١

(١)

من عالم الطفولة

شقيقة الفجر

من فضائل رمضان أنه يتيح لعدد كبير من الصائمين أن يتذوقوا بعد السحور متعة فترة تفوتهم هم وأغلب الناس بقية العام لأنهم من حزب نوم الضحى ، فيهم من يسهر اضطرارا لأنه من الكادحين ، وفيهم من يسهر دليلا لأنه من عشاق الليل أعداء الشمس . انها شقيقة الفجر ، يا له من جمال ، أعجب كيف يغفل كثير من الناس عنها ، ليس الا عندها يمتلىء القلب ، بأقصى ما يقدر عليه من الاحساس بعظمة الخالق ، بروعة الكون ، بالتشوف للطهر ، بالانبهار بالجمال .

ومن العجيب أن « القرآن الكريم » متببه لشقيقة الفجر ، متيم بجمالها ، أنه أقسم بالفجر « والفجر . وليال عشر » ، ربط بينه وبين صدق النية وصفاء الروح : « ان قرآن الفجر كان مشهودا » رسمه على لوحة مبهجة الألوان بخيط أبيض وخيط أسود ، ما أعجب زعشة هذه اللحظة من الزمان .

الآن لا أشهد شقشقة الفجر مرة الا ردتني بقوة الى
ذكريات طفواتي ، دنيائى حينئذ هي دنيا المسموعات لا المرئيات،
بالليل أسمع دقة نبوت الخفير على الأرض فلا ينفع الأمن المراد
لها أن توحى به الا في اثاره مخاوفي من القوى الشريرة المبهمة
التي تربص بنا في الظلام ، الجن والعفاريت والست المزيرة،
والبغلة التي تصطنع الوداعة ولود وتستدرجك لتركبها فاذا
تحامقت ونسيت المواعظ علت بك درجة حتى تبلغ عنان
السماء ، فأت في خطر أن تدوخ فتتهوى الى الأرض ويندق
عنقك ، ثم يشق الصمت صوت مرعب يخفق له قلبي خفوقا
مؤلما ، صوت البومة ، أم قويق ، ربيت على أنها نذير خراب
وقرب هبوط ملاك الموت على الأرض ، لا يعود للسماء الا وفي
جمعته روح انسان . أدعو الله في سرى ألا يكون المخطوفة
روحه واحدا من أهلى ، وكأني وثقت باستجابة دعائي ، فأسال :
تري أى الجيران سيقع عليه الدور ؟ اننى أرثى له ولأهله حتى
ولو كان بعد سبع جار .

وصوت البومة من طبقتين مختلفتين بينهما فاصل ،
أولا خافت يشبه الأنين يبعث في قلبي الحزن مع الخوف ، هذا
والله هو البكاء بعينه ، ثم فجأة صرخة قصيرة حادة قاسية
متوحشة ، لونها في أذني لون الدم ، وكنت لا أعرف حينئذ أنها
هي صرخة الانتصار حين تنقض على قنيصتها ، ولكنها كانت
تجعلني أحس احساسا عميقا مبهما بأن العالم الذى أعيش فيه

يسوده قانون صارم لا يرحم : قانون الافتراس ، صراع بين
القوى والضعيف ، اما آكل واما مأكول ، كنت أرتعب من أن
أكون من المأكولين ، وان بقيت غير واثق كل الثقة أنني
سأكون من الآكلين ، كنت على غير علم منى أمتحن قدرتى ، بين
الوثوق والشك . لعل هذه اللحظة من التردد صحبتنى فيما بعد
طول عمرى .

وحين كبرت وقرأت الشعر الانجليزى هالنى - نعم ،
أقول هالنى فهذا أصدق وصف لحالى - أنى وجدت صوت
البومة عنده غير كريبه ، لا ينذر بخراب أو موت ، يسلكه بين
بقية أصوات الطير الأنيسة ، ويرى فيها احدى صلات الانسان
بأسرار الكون وجماله ، فهتاف المخلوق للخالق ، دعاء
وتسبيح ، كيف يمكن اذن أن يقوم تفاهم بيننا وبين الانجليز ؟

ولكن مهلا مهلا ، كل هذه المخاوف ستزول ، سيكون لها
عوض جميل ، سيأتى به الفجر . وستنقضى عنده الغمة ،
سيصل الى سمعى صوت حلو مرتين مرة لأنه بعيد ، ومرة
لأنه يملأ قلبى بالفرح والخشوع معا ، انه صوت المؤذن :
الله أكبر الله أكبر حينئذ أحس بأننى فى حوزة رب قدير ورحيم
معا ، صوت المؤذن هو الذى يبدد عندى الظلام والمخاوف .
وها هو ذا بشير آخر بالصبح ، انه صوت الديك . يؤذن لى
هو أيضا من على سطح قريب ، كأنه يقول : اصبح يا نائم .

صدقنى ، لا أزال أذكر بوضوح صوت هذا الديك
العجوز زميل طفولتى ، صوت أجش كأن صاحبه من مدخنى
الجوزة • وكم كان يطربنى الفرق بينه وبين أول أذان للديوك
الصغيرة حين تبلغ أشدها وينبت طرف عرفها الأحمر ، صوت
رقيق ناعم لطفل يبدأ تعلم الكلام ، ويبلغ سمعى أحيانا صوت
طائر نسميه بالسقاقة ، هو بشير خير ، ينبىء عن قرب حضور
ضيوف أعزاء ، أقارب أو أغراب ، هى طائر ضامر مسحوب
كالسهم ، وربما بلغنى أيضا صوت طائر آخر كنت أراه يجمع
بين الفكاهة والوقار ولكن دون أن أصدق فكاهته أو وقاره ،
وهذه هى مأساته ، انه صوت كأكاة الغراب •

بقى من ذرارى الليل وأصواته شبح أسود ضخم له
صرخة حادة أيضا ، ما مرق مرة أمام النافذة وقد فرد جناحيه
العريضين الا فزعت ، انها الحدأة ، خطافة الكتاكيت وبضاعة
بائع جوال يحملها على رأسه وينادى فى الطرقات :
« يا جابر ! » • • انه بائع لحم الرأس ، كل طائرة حديثة هى
من سلاية الحدأة • وكنا نعجب لقول يردد علينا بلهجة التأكيد
المؤيدة بالمشاهدة أن بالاسكندرية طلسمها يحرمها على الحدأة ،
فسماءها خلو من هذا الطير الجارح • ولا أعرف الى اليوم
مبلغ الصدق فى هذا القول • واذا لم يصدق فمن أين أتت
هذه الشائعة وما سببها ؟

رويت لك ذكريات طفولتي الملفوفة في قماط من عالم الأصوات ، قصدت بها أيضا أن ابنه الشاب عندنا الى هواية جميلة منتشرة في البلاد المتحضرة ، بل يتعشقها رجال وقورون في أعلى الدرجات من السلم الاجتماعى ، انها تتيح لشبابنا التزود من العلم والاتباه لأسرار الخلق وجماله ، فعند أبناء كل بلد متحضر هواية دراسة طيوره ، مقيمها ومهاجرها ، معرفة طبائعها وعاداتها في الطعام والعشق وتربية الأولاد ، فرز أصواتها وأعشاشها وبيضها ، تباين أحجامها وألوانها ، لو فعلوا لوجدوا في هذه الهواية أكبر النفع واللذة معا ، أم تراهم - كما فعلوا في أشياء أخرى كثيرة - يتركون ذلك للأجانب النازلين بديارنا ؟

(« التعاون » ، العدد ٢٥١ ، ١٠/١٢/١٩٦٧ ، ص ١٠)

جانب الرهبة ..

عن طريق الأذن لا العين بدأ في طفولتي احساسى بتلك اللحظة الجميلة الرهبة معا : مولد الفجر وتردد أوائل ألقاسه ، فلا قيام للأسرة كلها من الفراش ، ولا فتح الشيش لأنه جرح للخلوة عندنا وعند الجيران ، ولا خروج الى الطريق الا والشمس قد علت قصبة ونصف على الأقل ، (هذا القياس من قبيل التحسر على أننى كنت لا أسكن الريف) •

هكذا حال أغلب الأسر التى يمولها موظف فى ديوان ، أطبقت على مسكنه جدران العاصمة ، وضمان الرزق وانتظامه ، ثرية مستكفية ترعرع فيها ميله الى التكاسل •

وربما أيضا عن طريق الأنف ، فحتى فى الشتاء والنوافذ مغلقة بإحكام تحس هى الأخرى بطعم الفجر حين يتسرب اليها رغم السدود هواء كأنما انعدم وزنه ، رق ولطف وترطب ، تظهر وتطيب فيكاد الفم يذوق أيضا حلاوته ، انه نشوة بلا خمر ،

ولكن الاعتماد كله على الأذن ، القابعة داخل أسوار الجدران
المطبقة ، المنتبهة ، المنفجلة ، لواقعة على ذنبها - كما تقول
العامة - من فرط اللهفة والتحفز .

واذ غابت رؤية العين فقد انطلق الخيال واشتط في
شروده ، وتوهم كائنا ما لم يكن ، وكانت له تهاويل تقيم بدل
الحقيقة حقيقة من عندها لا تقل عنها اقناعا وصدقا ، ولأن
الطفولة هي فترة التملص الى الالف والثقة والاطمئنان - ولو
انصياعا أو صلحا - من قبضة الحيرة والشكوك وتتابع امتحان
الأشياء والمعاني والرموز ، من قبضة عالم الأسرار المجهولة ،
لا حديث معه ، أخذا وعطاء الا بلسان الخوف ، فان الخيال
هو الذى تكفل بتضخيم جانب الرهبة بخسا بجانب الجمال في
لحظة مولد الفجر وتردد أول أنفاسه ، فانقلات مكاننا فوق
سطح الكرة الأرضية من بحر الظلمات الى النور يصحبه
احساس الصدور بثقل كتلتها الضخمة التى تجثم عليها ، كأنما
« فوق » أصبحت « تحت » احساس بدورانها حول محورها ،
هذه الرحى أى شئ تطحن غير العظام واللحم منا ، أحتم
ألا تخف عن سمعنا الا اذا كفت هى عن الدوران ؟

احساس - لفترة - بأن المدينة الكبيرة وحش مهول ،
كفانا نومه بالليل شره ، ها هو ذا يهم بالصحيان ، انه ساذج
شرس معا ، ولأنه ساذج فشرسته حمقاء ، وغير مأمونة . وقد

تشور لأوهى الأسباب ، ومرة انها أرض معركة ، قطع الليل فيها القتال ، وها هو ذا يوشاك أن يتجدد مع أول شعاع للشمس ، قتال بين آلاف من الجيوش ، وكل جيش قوامه فرد واحد ، مدجج بالسلاح ، يا قاتل يا مقتول ولا ثالث للاحتمالين ، ولو فرضنا المستحيل وساد السلم فانه هدنة بين معركتين .

ليس بالقليل جدا ولا بالكثير جدا عدد الأصوات التى تمشى بين يدى الفجر لتعلن عن مقدمه وترحب به بصوت انسان (المؤذن) ، وصوت حيوان (صياح الديك وزقزقة الطير وتسبيحة الكروان) هى التى تتكفل بزف الجمال فى مولد الفجر الى أذنى ، أما جانب الرهبة فكان يتكفل بها — ولا عجب — صوت للحديد ، صوت احتكاك عجلات بقضيب ، كانت أذنى تبعد بالنهار كثيرا وبالليل قليلا عن مهبط مسجد السلطان حسن ، حين يبلغه الترام القادم من شارع محمد على يستدير الى اليمين بقوة الزاوية القائمة ليعيد من ورائه المسجد الى ميدان القلعة ، فيكون لاحتكاك العجلات بالقضيب عند الاستعادة صوت حاد ، لا أسمعه بالنهار ولكنه يطن أذنى مع أول ترام يولد مع الفجر ، فتكاد تجز له أسناني — صرير معدنى ، حاد ، فج ، سمج ، بلا حياء ، قاس ، كأنه شحذ سكين للذبح ، هذا ولا ريب أول صليل السيوف وقد بدأت المعركة ، وعجل الترام هو اختصار للرحى التى تطحن منا اللحم والعظم .

حينئذ يتغلب في قلبي صوت على صوت ، الصوت المغلوب
كان يهمس لى : لا تخف ، ان الله رازقك كما يرزق الطير ،
تمضى خماسا وتعود بظانا لأنها مؤمنة متكلة على ربها ، خالقها ،
انه بها رحيم ، والصوت الغالب يفرخ لى : ليس في يدك
ضمان ، فلا اتكال لك اذن الا على نفسك وسعيك ،
والا لسقطت على الأرض وداستك الأقدام ومضغت الأنياب قبل
سيرتك لحملك .

ولكن ما يكاد صوت المؤذن يصل الى سمعى من بعيد
حتى ينعكس الحال فيصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٥ ، ١٩٦٩/١٢/٧ ، ص ١٠)

طائر الرهبة ..

عن طريق الأذن لا العين يتولد احساس الطفولة بأن عالم
المرئيات ملفوف بعالم آخر خفى ، لا تفض أسرارہ .. مخيف ،
مخلوقاتہ لا فراها رأى العين بل تمثل فى تصورنا بالسماع
عنها ، الغول • أبو رجل مسلوخة • الست المزيرة • بغلة
العشرى • الجن • العفاريت • الأخت المقيمة تحت الأرض •
كذلك كان لقاءنا برهبة الموت وامتناع سره عن الفهم •
لا تتحرك شعرة فى رؤوسنا لرؤية الجنازات أو سرادق المآتم •
أو لطم الخدود ، هذا شىء مزعج ولكنه غير مخيف ، لقد
تكفل صوت مميز - لا نسمعه الا ليلا - بأن ينقل إلينا
الاحساس برهبة الموت ولغزه فى عنف شديد •

ها أنذا راقد فى الفراش فى حضن أمى ، أنعم بلذة الشعور
بالانتماء ، بالحنان ، بالطمأنينة ، بدوام الدائم ، الدنيا
والعمر ، ربما بين اليقظة والنام • وفجأة ، تتحفز أعصابى
وكل قدرتى على الانتباه والانصات • كل ذخيرتى من التوجس •

حين يصل أذنى وسط السكون صوت خافت ، مديد الى قدر ،
متكرر على مهل . . لا أدري كيف أصفه : أتنبئ قلب مسكين ؟
فحيح حشرة من الزواحف ، زومان متآمر يتلمظ بشهوة
الاتتقام ، تلاوة ورد من متعبد ؟

من أجل هذا كان من المستحيل أن أحكم هل هو حلو
أم بغيض ، ولكن لى به خبرة سابقة ، فلا أعرف صوتا يدانيه
فى القدرة على بث الرهبة والخوف فى قلبى لأنه هو الذى
يؤذن بما سيتبعه من صرخة حادة عنيفة تشق الهواء فتنبئ أن
المخالب قد بثقت أيضا صدر ضحية ، صرخة وحش مفترس
قاس ، أتصوره حينئذ وقد تقلصت شفتاه وكشر عن أسنانه ،
لمعت عيناه ببريق النصر ، بلذة غمد السيف فى قلب العدو ، انه
قتل بانقضاض مفاجئ ، وعلى حين غرة من الضحية ، ولا يفوت
أذنى أن تلتقط من حشايا هذه الصرخة صوت وصوصة خافتة ،
ضئيلة العمر ، كنت أول الأمر لا أتنبئ سرها ، ثم أدركت
بالتجربة والتكرار انها آخر أنفاس الضحية بين المخالب المخضبة
بالدماء .

تهب أسمى فزعة من رقادها . تستعيز بالله . تناشد الشر
أن يبقى « برة » وبعيدا ، وتسأل فى توجس شديد : ترى على
من وقعت قرعة الموت التى تنبئ عنها هذه الصرخة ؟ فى
بيتنا ؟ لا . لا . عسى أن يكون على أحد بيوت الجيران ،
لا القريبة ، بل البعيدة .

هذه هي صرخة البومة ، التي كانت أول من حدثني عن الموت ورهبته ولغزه • وحتى لو لم تكن البومة نذير الموت فهي نذير خراب : كان الحي الذي سكنته — وربما البلد كله — مهددا بأعصار كاسح ، سيخلع السقوف ويقوض الجدران ، وتصبح البيوت خاوية على عرشها ، وستجر العاصفة وراءها أكاداسا من الرمال تنحط وتتعالى حتى تبلغ أعلى الشواحق • لا يبقى في اللوحة الا لون واحد هو اللون الأصفر •

لم أرهب عزرائيل رهبتى لصوت البومة ، ورغم دوام المدافعة على طول العمر المديد لم أشف الى اليوم من هذه الرهبة تمام الشفاء •• ولكن صبرا ، صبرا •• ان هذه الرهبة لن تلبث حتى يبددها صوت آخر •• صوت جميل هذه المرة •

(« التعاون » ، العدد ٢٥٦ ، ١٤/١٢/١٩٦٩ ، ص ١٠ ، ٩)

رسائل من عالم مجهول • •

أرادوا لى وأنا طفل أن أؤمن كما آمنوا فأمنت بأن هذا الطائر الذى نسميه بالسقساقة (ولا أعرف حقيقة اسمه الى اليوم) اذا زقزق وهو يرف بجناحين من وراء نافذتنا فمعنى هذا أنه يحمل إلينا رسالة تقول ان ضيفا سيقدم إلينا على غير انتظار منا ، سيدق الباب فاذا صحننا : « من ؟ » رد علينا انسان لا تتوقعه • ولا تقول رسالة السقساقة هل سنسر لمقدمه أم لا سر ، هذه مسائل غير داخلة فى اختصاصها • لعل تصرفات البشر تبدو للسقساقة فى غاية من البلاهة أو اللؤم ، فتزدرىها ولا تشغل نفسها بها •

وأن كلاكاة الغراب (الطائر الوحيد الذى يخيل اليك من حركة رقبتة اذا صاح أنه يتقيأ) تنبىء بالفراق وتشتت الأسرة ، وأن نعيق البوم بالليل نذير بأن ملك الموت عزرائيل يحوم حول الحى كله ليخطف روحا انتهى أجلها ، كنت أدعو الله من كل قلبى أن يتخطى منزلنا ويمضى حيث شاء ، ثم أشعر بخجل

لأتى بعث جميع الجيران — غدرا — بيع السماح ، مع أن النبى
أوصى على سابع جار ، الى اليوم ينقبض قلبى لنعيق البوم •
ولكنى لما كبرت دهشت أشد الدهشة أن وجدت نعيق البوم
موصوفا فى الشعر الأوربى بأنه هتاف رقيق ، حقا ان هؤلاء
الأقوام من جنس غير جنسنا •

آمنت أيضا أن الشبشب اذا انقلب رأسا على كعب فمعنى
هذا أن أحد أفراد الأسرة سيخرج الى سفر ، وأن « البورص »
اذا تسلق أحد جدران المنزل ولبد عليه وأطلق صوتا كأنه حس
المكارى لحماره فلا بد لى أن أصبح فى وجهه : « صاحب البيت
اسمه محمد » وقاية لشره ، بشفاعة الرسول ، لأنه اذا لمس
الملح وأكلنا من طعام خالطه هذا الملح فلا بد أن تصاب يدنا
بمرض البهاق ، فتغطى جلدها بقعة مشرذمة الحوافى من لون
أبيض كالح ، واللون الأبيض لا يصبح دميما الا بجريرة هذا
المرض وحده ، يهوى أحيانا قبقاب متيم بالقسوة وحب الأذى ،
عاق لأمى وعاص لنصحها بترك هذا الضيق يمضى لحال
سبيله ، فينقطع الذيل ، ويظل هذا الذيل المقطوع يتحرك
ويتلوى أمامى (وبقية الجسد — يا للغرابة — خامد) وأنا
أتأمل الذيل بدهشة لا حد لها ، هذا أول شذوذ يخرق قاعدة
ريت عليها — بأن الحركة هى الفرق بين الموت والحياة ، هل
هذا الذيل حى ؟ هل هو ميت ؟ هذا سؤالى الذى لا يهدينى

أحد الى جوابه ، هل بعض الحيوان يكمن روحه في ذيله ؟ ربما ،
هكذا كنت أقول لأخرج من حيرتى •

وآمنت بالجن ، والعفاريت ، والست المزيرة ، وبغلة
العشرى - تقابلتك في ليلة مقمرة (هذا هو الشرط) وتغريك
بركوبها فاذا فعلت علت بك حتى تبلغ السماء ثم تلقيك عنها
فتهوى وتلقى مصرعك ، وآمنت كذلك أن لى أختا تسكن
الأرض (كم تمنيت أن أراها رأى العين .. هذه الأخت
العزيزة) وأن بعض الرجال متزوجون من نساء من الجن ،
وبعضهم من حوريات البحر ، الزوجة نصفها الأسفل سمكة
ونصفها الأعلى امرأة ، فلها ثديان كنساء البشر •

وكنت قبل أن أنام أحلم في بعض الليالى - وفي لذة
كبيرة - بأن امرأة من الجن خطفتنى وأنزلتنى قصرا وردى
اللون في كهف سحيق ، قصر مسحور ، ففيه سكيئة متخلفة من
ألف صرخة موءودة ، ونسيم عليل انطلق كالروح الرضية بعد
آخر شهقة من لهاليب من النار كانت تتوالب كأنها في رقصة
باليه ، زوجتى تنقد عيناها كالخمر وهى تقبلنى ، ولكنهما
تشعان باشتياق وخب واعزاز لا تقدر عليها امرأة من البشر ،
وهى شديدة الغيرة على ، تأخذ منى الموائيق ألا أفشى سرها
إذا عدت الى سطح الأرض ، وأن أظل وفيا لها ، فلا أخونها
مع امرأة ولو كانت بين الناس هى ست الحسن والجمال ،

أما عقاب الخيانة فزلزلة في عقلى فالتأت ، فلا أنا عاقل ولا أنا
مجنون ، أو أحلم بأن حورية من البحر قد قادتني الى قصر أزرق
اللون في قاع المحيط ، كأن جدرانه من البللور ، جمد فيه
من البرد كل شعور ، حتى الشعور بالبرد .. زوجتي النارية
تكلمني ، أما زوجتي المائية فخرساء ، ربما من خجل لأنها
لم تف لي بكل عهود الأثني ، لأن نصفها الأسفل سمكة ، من
أجل هذا زاد حذبها على ، لا تدري أي أطايب طعام البحر
تقدمه لي ، أما زوجتي النارية فلا تسأل عن طعامي وشرابي ،
حقا انها امرأة يدل عليها خلقها الشرائي وهيئات أن تتنبأ
بخطواتها التالية .. وكنت أقول عن حورية البحر ، خرساء
خرساء ، لا بأس ، فان أكبر لذة عند العشاق هو التخاطب
بالعيون .

آمنت بهذا كله ، لا تقليدا فحسب ، بل بلذة وطرب
شديدين ، انني لا أنفي عليهم حشو دماغى بهذه السخافات
كلها ، بل أشكرهم كل الشكر عليها ، كم كانت طفولتى بدونها
تبدو لي تافهة مملة سقيمة ، محدودة العقل بليدة الحس ضيقة
الأفق . فبفضل هذا التلقين وجدتنى أدفع دفعا وأنا في سن
مبكرة الى الابتاه الى أن عالمنا محوط بأسرار كثيرة لا نعرفها ،
وأن وراء الصورة التي تتراءى لحواسنا صورة أخرى نجهلها
فلم ينقطع لي منذ ذلك الوقت تساؤل عن أسرار الحياة

والكون والعجب لها ، والعجب هو علامة يقظة العقل والروح ،
انه نشوة لا تماثلها نشوة أخرى ، ولما كبرت وقرأت أن بعض
علماء الفلك يقولون ان عالمنا هذا هو صورة معكوسة
(كأنما في مرآة) لعالم آخر بدت على فمي ابتسامة رضا وعاد
لي جو طفولتي بكل براءته وحيرته وتعجبه .

(« التعاون » ، العدد ٢٨٨ ، ١٩٦٨/٨/٢٥ ، ص ١٠ ، ٩)

يمين وشمال ..

ربيت أيضا في طفولتي على الايمان بأن اليمين رمز للخير
والشمال رمز للشر ، والى اليوم لا بد لى أن أدفع بقدمى اليمنى
قبل اليسرى اذا لبست البنطلون أو الحذاء أو اذا خرجت من
البيت أو دخلت مكانا أرجو فيه خيرا لى ، أستبشر باليمين
وأنطير بالشمال ، واليمن مشتق من اليمين ، واليمن هو الخير
والبركة والقوة .. والشمال فى القاموس هو الشؤم .. وليس
للكلمتين مصدر واحد كما فى اليمن واليمين .. أو قل ربما
دل وجود حرفى الشين والميم فى الكلمتين على وجود مصدر
قديم ضاع ، هو الأصل فى اشتقاقهما .

وواضح أن التفاؤل باليمين ترتب عليه التشاؤم بالضد
وهو الشمال ، وهذا من سوء حظ كلمة الشمال وكل ما تمثله ..
وأعتقد - وإن لم تكن تحت يدي مراجع - أن هذا التفريق
بدأ حين أدرك الانسان لأول مرة معنى الطهارة والنجاسة ،
حكم بأن هناك أشياء طاهرة - كالماء - وأشياء نجسة كجثة

الميت ، فخصص يده اليمنى لتناول الأشياء الطاهرة ويده اليسرى للمس الأشياء النجسة ، وبدأ يتبارك بيده اليمنى وأخذ يعمل بها أكثر من عمله بيده اليسرى ، هذا تعليل لا يشفى الغليل لأن السؤال لا يزال قائما : لماذا اختار اليمين مثلا - دون اليسار - للطهارة والعمل ؟ • هذا الانسان البدائي العبقري الذى عرف كيف يأتى بالمعجزات : الزراعة - استئناس الحيوان - اشغال النار - التعبير عن نفسه - الرسم على جدران الكهوف - لا تزال حياته محاطة بالغموض •

ومما ساعد على هذه التفرقة بين العضو اليمين والعضو الشمال أن ظاهر جسد الانسان مقام على قانون الثنائية وتطابق الجزئين مع تماكسهما ، كانه باب من ضلعتين متماثلتين متعاكستين ينشق من منطقة على خط يخرج من وسط الجبهة الى سن عظمة الأثف ، ويمتد الى الصرة حتى العضو في نهاية العمود الفقرى ، وبقيت الساقان متدليتين ولكنهما خاضعتان للقانون ذاته • فكل ما تجده على يمين هذا الخط تجده معكوسا على يساره ، كانه صورته في المرآة • وأحب أن أذكرك هنا بما فعله الفنان الفرعونى حينما رسم جسد الانسان على الجدران • رسم الرأس منظورة اليها من جانب (بروفييل) ونظر الى الجسد منظورا اليه من أمام • فلما جاء لرسم القدمين جعلهما في صورة واحدة • كلاهما قدم شمال • • أى الابهام هو آخر أصبع في يمين القدم اليمنى واليسرى • ولكنه في

النحت التزم - بطبيعة الحال - النقل بصدق عن الواقع .

هذا هو قانون ظاهر جسد الانسان (التماثل وتعاكس
الجزئين) ولكن اذا فتحنا بطنه ونظرنا الى جوفه وجدنا هذا
القانون ساريا في بعض الأعضاء دون بعض .. فلنا جزءان
للرئة متقابلان متعاكسان ، وكليتان ولكن لنا قلب واحد ومعدة
واحدة وكبد واحد وطحال واحد .. ما هو سر اختلاف القانون
في الظاهر عن الجوف ؟ .. لا أحد يدري ان كان هناك منطق
جاز لنا أن نقول ان تطور الانسان لا بد أن يسير به الى أعمال
هذا القانون في جوفه كما في ظاهره فيكون له في يوم قلوبان
وكبدان وطحالان ، لأن النقلة الكبيرة في التطور كانت في انتقال
كائن حي من التطابق على الجنين - كما في السمك ورأس
الطير الى التطابق والتعاكس من أمام - كالحیوانات الشديدة
والانسان - أى اجتماع العينين على سطح الوجه بدلا من أن
تكون واحدة عن يمين أو فوق وواحدة عن يسار أو تحت ..
اعذرني اذا سرح الذهن في عجائب صنع الله فلن يسلم من
التخريف .. ان عمرا كاملا ينصرف في تأمل عجائب خلقه
الانسان ، ينقضى ويبقى العجب على حاله .

أقول - عودا على بدء - اننى كنت في طفولتى أتلقي
الضرب على يدي الشمال اذا هممت أن أكل أو أكتب بها ،
كأننى ارتكبت جريمة فظيعة ، وظللت بقية عمرى لا أشهد

انسانا يستخدم يده اليسرى دون اليمنى الا اتقاني شيء من
القلق والنفور ، وأحسست أن هذا الأشول مخلوق شاذ ،
وخرق في قانون مستتب ونظام سائد ، واعتبرته من جنس
يختلف عن جنسي .. ولكن النفور يتراخي ويحل محله شعور
بالعطف ، أو قل بالثناء ، وهذا تفسير ما قلته لك مرة سابقة ،
لما كبرت وقرأت ان بعض علماء الفلك يقولون ان عالمنا
هذا هو صورة معكوسة (وكأننا في مرآة) لعالم آخر بدت
على فمي ابتسامة رضا وعاد لي جو طفولتي بكل براءته وحيرته
وتعجبه .

د « التعاون » ، العدد ٢٨٩ ، ١٩٦٨/٩/١ ، ص ١٠

هذا العالم الخفى المجهول ..

اننا نفقد بتجاوز مرحلة الطفولة احساسا غريبا - هو لذيذ ومخيف فى آن واحد - بأن وراء عالم الواقع الذى نعيشه عالما خفيا مبهما ، يحيط بنا ، ويتدخل فى حياتنا ، ويخاطبنا صراحة أحيانا ورمزا أحيانا ، انها خسارة جسيمة ، لأننا نهبط من الروعة والدهشة والاهتزاز النفسى الى وجود رتيب وطمأنينة تافهة مقامة على مسلمات اصطلاحنا عليها ، وقلمنا تناقشها ، وانبقى صوت ضئيل جدا يهمس لنا بخفوت أن لا ضمان بأنها غير زائفة .. ولكنه صوت غير مزعج ، اذ اننا درجنا على الاستراحة فى حضنه بتأجيل الاجابة على الأسئلة الى الغد ، ونحن نعلم أن هذا الغد لن يأتى أبدا . حتى اذا وصلنا الى مرحلة الرجولة تتبعنا بشغف تحسس العلماء لهذا الواقع الخفى المجهول ، ولكن هيهات لهذا التبع أن يثير فى

قلوبنا ما كانت تحس به أيام الطفولة من الروعة والدهشة .
الخبز الطازج أصبح بائقا ، وشتان بين الطعمين .

وقد نشأت في بيت لا أزعم أنه كان بدعة بين البيوت ،
غاية ما أستطيع أن أشعر به هو أن جوه كان يحملني وأنا في
سن صغيرة جدا على بدء الاحساس بهذا العالم الخفى المبهم .

أتلقاه أحيانا بفزع ، حين أسمع الرعد ، كان أهل البيت
يضطربون عند سماع الرعد ، ويرونه علامة على غضب من
الله ، وربما تمت أُمى ببعض الآيات ، واستغفرت الله كثيرا
وأنايت إليه .

فكان هذا الرعد من أوائل النوافذ التي أطل منها الى
ما وراء ، وقلبي خائف . . أول صورة ارتسمت في ذهني لرَبنا
تمثلت لي في الرعد ، قابله أول مرة مع الأسف وهو غضوب .
أما أنه رحيم فقد تعلمته فيما بعد بالتلقين . وعشت أحاول
أن تطمس صورته الرحيمة صورته الغاضبة في قلبي ، محاولة
لم تمض بغير جهد .

أتلقى هذا العالم الخفى المبهم بفزع أيضا حين أخاف
من العفريت وأنا طالع السلم في الظلام ، أو وأنا مار بالليل تحت
البوابة في الحارة ، حيث تنتظرنى الست المزيرة ، لم يكن
الفزع أن العفريت أو الست المزيرة سيصيانى بشر ، بل

لا احساس بأن عالمنا مسكون بأقوام لا نراهم ، جنسهم ليس مثل
جنسنا ، مهما أحكمنا غلق الأبواب والنوافذ فلن نسلم أن يكون
معنا مخلوقات لا ندرى من أمرها شيئاً •

وأتلقي هذا العالم الخفى المجهول بشيء من التلذذ
والانبساط حين بصرنى أهل البيت ببعض الرموز ، تدل على
أن هناك قوى لا نعرفها نتحدثنا بهذه اللغة الحلوة الطريفة
الذكية ، اذا جاء أمى صوت السقاسقة قالت انا نتظر ضيفا ،
اذا ركبت فردة شبشب على الأخرى قالت : انا على سفر ،
اذا طرفت عينها أو شرقت وهى تشرب قالت : ان انسانا بعيدا
يذكرها فى تلك اللحظة ، اذا انكسرت المراة أو الكوب قالت :
انها أخذت الشر وراحت • اذا سمعت صرخة البومة انزعجت
وقالت : ربنا يستر ، وفهمت منها أن هذا هو نذير الموت ،
هنا يعود الفرع فيختلط باللذة •

وتفتح لى نافذة أخرى على هذا العالم الخفى المجهول
وأنا أستمع الى أهل البيت بشغف ودهشة وهم يتحدثون فى
الصباح عن أحلامهم بالليل كأن لهم ولعا شديدا براوية هذه
الأحلام بعضهم لبعض • أما عنتى الأرملة التى تقيم معنا فقد
تخصصت فيما يبدو - فى أحلام تشبه الروايات الطويلة
المفككة ، بلا روابط بين المشاهد ، فهى تقول لنا : انها رأت
نفسها قد دخلت حديقة يانعة ، ليس كمثلهما حديقة فى الأرض ،

فيها أناس يلبسون أخضر في أخضر ، ثم اذا بها فجأة في محكمة مزدحمة فشدها امرأة من يدها ، تطلعت الى وجهها فاذا بها هي أمها التي ماتت منذ زمن طويل ، وأنها سارت فوجدت في يدها طائرا ، انقلب من فوره الى صورة أبيها مقبل عليها بوجه ضاحك النخ النخ . . كانت عمتي لا تحاول تفسير أحلامها ، ليس فيها شيء يستحق التفسير ولكنها كانت سعيدة بهذه الأحلام التافهة ، كأنما تضاعف بها عمرها ، العجب من ذاكرتها التي استطاعت أن تروى هذا التفكك مرتبا . أما أمي فكانت متخصصة - فيما يبدو - في القصص القصيرة ، تروى لنا حادثة واحدة هي كل حلمها ، وكانت تصر على أن هذا الحلم رسالة موجهة اليها ، فتحاول تفسيره ، ربما رجعت الى كتاب كنا نعتز به كثيرا هو كتاب « تفسير الأحلام » لابن سيرين .

من هذه التفسيرات تبينت بشيء من اللذة والانبساط وأحيانا بشيء من الخوف أيضا - أن هذا العالم الخفي المجهول له لغة غير لغتنا ، فهو يتكلم معنا أحيانا بالضد ، يقول شيئا ويريد عكسه ، لماذا ؟ الله أعلم . فالمرض يشير بالعافية ، والافلاس هو الغنى ، والموت طول في العمر ، ولكنه يلجأ أحيانا الى الصراحة القاسية فلا يتكلم بالرمز بل يعنى ما يقوله ، لا أنسى الزعاج أمي ذات صباح لأنها رأت نفسها في الحلم عارية . قالت : ربنا لا يحكم علينا بفضيحة .

جزى الله « فرويد » - لا أدري هل أقول - خير الجزاء
أو شر الجزاء ، فحين قرأته وجدت تفسيرات معقولة لأحلام
لى كثيرة فى صباى وشبابى ، انها كما قضت على الغموض قضت
أيضا على جانب كبير من سحر هذا العالم الخفى المجهول
الذى عرفته فى طفولتى .

(« التعاون » ، العدد ١٨٨ ، ١٩٦٦/١٠/٢٥ ، ص ٨)

الدودة والانسان ..

هل رأيت مرة لقاء دودة القز بورقة شجرة توت ؟ الدودة قلامة ظفر ، والورقة تقارب الكف ، ومع ذلك فقبل أن يرتد اليك بصرك تكون الورقة قد اختفت عن الوجود ، غارقة في جوف الدودة ، ولكن كيف حدث هذا ؟ اننا لا نرى لعاب الدودة وهو يسيل باحتدام شهيتها ، ولا فكيتها وهما يطبقان كالكماشة على طرف الورقة ، ولا ما في فيها من مصنع هائل ذاخر بالسكاكين والتروس وآلات القرم والطحن ، لا نعرف هل عيناها تبرقان من شدة اللهفة أم مغمضتان من فرط التلذذ، ولكننا نشهد بمتعة كبيرة مثلاً فذا رائعا لمعنى الاتهام الذي لا يشبع ، للدأب الذي لا يكل ولا يمل ، لاعتماد حياة قوم على قتل أقوام .

ها هو الخروف قد تم ذبحه وتفقخه وخبطه وسلخه ، اذا استثنينا الدم — فهو حرام — فلن يبقى فيه خير الا كان مآله الى الاتهام ، من أول العين الى الحافر ، ومن الرقبة الى

الأمعاء ، الكبد والطحال والقلب والكليتان من الأطايب ، فهي
شواء لوجبة الفطور يوم العيد . الفأر أسعد حظا منه .
لأن ذيله تعافه القطة . سيبقى كأنه شاهد قبره ، محطما على
الأرض ، والقبر يجرى حيث تجرى القطة . أما ذيل الخروف
فسيغيب أيضا في البطون . الأسنان لن تكف الا اذا أذلها برهان
أكيد على عجزها ، حين تصطدم بخصم أصلب من صلابتها
العاتية ستقضض القراقيش حتى تنفتت ، وتمضغ .. متمص
النخاع ، ستعالج الغضروف - وهو في قوة الصدف - حتى
تفصله بالكحت ثم تطحنه وتبلعه . لا تقف هذه الأسنان
الا حيث يبدأ وابلور الزلط . ان بقايا عظام الخروف لم تنج من
هذه الأسنان الا بقدره قادر .

ولكن في ركن المطبخ أو الحمام أو السطوح أو الحوش
تخلف شيء لايسكن أكله مع الأسف . شيء فارغ . كأنه
المظروف الذي بقي في مكان الجريمة بعد اطلاق الخرطوشة ،
هو فروة الخروف . مكومة كأنها معطف القتل . سقط عنه
ملوئا بالدم . المعطف مات هو الآخر بموت حشوه . فبدأ كأنه
رث . قديم . كهنة . روباكية . أصبح شاهدا لا على عز
صاحبه المرحوم .. بل على بؤسه وفاقتة . هو لحافه ووسادته
بالليل . ودرعه بالنهار . يلبسه على اللحم . بلا قميص
أو جلاية .

ماذا تفعل بفروة الخروف ؟ انها لزجة . وكل شيء لزج

تصيب نفوسنا بالقرف • توحى بقدرة هائلة على أن تنفث التن
عما قريب • أن يعف عليها الذباب • لا نستطيع أن نجسها
الا بطرف عصا تقيب الغسيل فى الصفيحة • تذكرنا برائحة
العطن الكريهة التى تكربنا كلما مرونا بالمدابع •

ماذا نفعل بها ؟ وقت البالوعة والمرحاض يتفرجان
بتشف على حيرتنا • (ورونا شطارتكم) يكفيهما الدم والروث •
أكبر الأمل اذن أن يرضى بها الجزار • • أجرا له • كله —
ليت • • — أو بعضه • لا بأس • والا فسنظل ترقب بفارغ
صبر صوتا يجوب الطرقات • ينادى « جلد للبيع فروة للبيع »
سنجرى لاستدعائه • وتقبل — بعد فصال قصير غير جاد من
ناحيتنا الثمن الذى يحزن عنده • • انه يمت بصلة نسب الى
(الترابية) • • نزلاء القرافة • مهنة مرذولة ، ولكن ما أشد
لزومها لأهل الفقيد • ورحمتها به وبهم • تقول أمى : « لنتنظر
رجال الاسعاف فنتبرع بها لهم • ونكسب ثوابها » • ولكن
لا أحد يضمن حضورهم ، يظهرون عيدا ويختفون أعيادا •
غلبت عليهم طباع الموظفين •

وحين تنزاح رمة الفروة من بيتنا • • انزياح الهم عن
القلب • • تختفى آخر ذكرى لنا عن الخروف الحى • ومأمله
الحزينة بالليل • ينادى أو يرد بها على تعجمات تتجاوب فى
الحى كله • أصبح حصصا من اللحم • مشغولون نحن بفرز

ما نوزعه منها ، وما نستبقيه للشئ • للقلبي • للسلق •
للتشويح • للتخزين • • لا يزال على هذا اللحم أثر من نضارة
الحياة • • يتوهج كأنه اتفاضة الذبالة قبل أن تنطفئ • •
أطياف روائه ولونه الوردي • • تتذبذب كأنها آخر الأنفاس •
الخلايا تتلأأ في الموت بعد طلوع الروح •

ورغم هذا كله لا أدري كيف نشأت فوجدت في بيتنا
نموذجين لفروة الخروف • واحدة بيتي • شغل يد • من عمل
بواب لأحد جيراننا • له خبرة في الدباغة • بطنها كورق الكرتون
المجعد • وظهرها صوف ملبد • والأخرى ذهبت الى مصنع
وعادت • بطنها مصقول لامع • وظهرها صوف منفوش •
مسرحة • ملون بتفتة حمراء • ولكن « ما ألعن من سستي
الا سيدي » • • كلتاها لا أطيقه • فرغم شيخوختها لا تزال
تعلق بهما رائحة الخروف وزخمتها • خزين حرارة بدنه في
صوفه لم يتبخر • حتى في عز الشتاء ينفث صهدا خائقا • وفي
بيوت كثيرة كانت فروة الخروف • البيتى • شغل اليد • هي
فراش الخادمة الصغيرة • على عتبة المطبخ أو من وراء بابه •

اختفت الآن فروة الخروف من بيوتنا • وحلت محلها فراء
أخرى • تجدها على أبدان أنساتي سيداتي في رحاب الأوبرا ،
أو في حفلات الاستقبال الهايلايف • • عقبال عندنا وعندك •

صورة مخيفة للناس والدنيا . .

صب على رأسى فى صغرى صهريج هائل من الحكم
والمواعظ . بالفصحى والعامية ، ثرا وشعرا ، على لسان
بنى آدم ولسان الحيوان ، رصيد ضخيم من الأمثال البلدية
أسمعه ممن حولى ، ورصيد أشد ضخامة منحدر من التراث
أقرؤه فى الكتب التى وضعت فى يدي ، نحن فى الشرق مصابون
بهوس تصيد الحكمة وتقنياتها والتقنن فى صياغتها ، نقولها ونحن
نهز الرؤوس - دراية وخيلاء ، ونسمعها بمصمصة الشفاه -
اقرارا واستحسانا واعتذارا .

ولا أظن أن صبيا فى مثل سننى فى الغرب تلقى على أم
ناصيته هذا الشلال الذى تلقيته ، أنهم يتركونه يعمل ويلعب ،
ثم يرقبونه ، فإذا رأوه أخطأ أرشدوه الى الصواب بكلام كل
يوم ، فتكون النصيحة عملية . مستمدة من الواقع ، والتدريب
خطوة خطوة . أما أهلى ومدرستى فكألمنا أرادوا لى أن

أكون فيلسوفاً من قبل أن تثبت أسناني البيض محل أسناني
الخضر .

ترنحت تحت هذا الشلال لا لقدرتة على سحقى فحسب ،
بل لأن بعضه كان يناقض بعضا ، بدل أن يعلمونى الفلسفة
أورثونى الحيرة ، حكم وأمثال تحض على الجد والسعى
ولو الى حد اهدار الكرامة « المحتاجة غناجه » ، وحكم وأمثال
تحض على التواكل « اجرى يا بنى آدم جرى الوحوش ، غير
رزقك ما تحوش » . . حكم وأمثال تدعو الى الاقتصاد
« والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » . . وحكم وأمثال
تزين لك « صرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » . . الضد
والضد جنبا الى جنب . ولا من يقول لى : خذ هذا ودع ذاك ،
أو متى تأخذ هذا وتدع ذاك . بل قالوا « كل شاة برجلها
معلقة » تركزونى فى حيص ييص .

لا عجب ان وقعت هذه الحكم والمواظ على أذن من طين
وأذن من عجين ، على لوح من المرمر لم تعلق به منها قطرة
واحدة . ولعلى أكذب ، ربما كان هذا التناقض قد لبد فى
ضميرى منذ صباى وهو تعليل خوفي القديم الدائم من عدم
الاستقرار ومن الحيرة ، من بلبلة الفكر والعواطف ، غير أنى
أستطيع التأكيد بأن نوعا من هذه الحكم والمواظ قد رفضته
منذ مبدأ الأمر رفضا قاطعا ، لفظته نفسى كما يلفظ الجسد

عضوا دخيلا ، لأنه كان يخالف طبيعى ومزاجى ويرسم للناس
والدنيا صورة مخيفة .

وهذا النوع من شعبتين متلازمتين كالتوأمين اللصيقين :

الأولى - تحض بشدة على سوء الظن بالناس ، بجميع
الناس بل الحذر منهم ، بل (ولا بد لى أن أستخدم هنا كلمة
« بل » مرارا لأن الداهية ثقيلة ولأن التصاعد كان هو
القائد) بل تذهب الى حد التحذير من الأصدقاء بل من
الأقارب ، بل الى التأكيد بأن الأصدقاء هم أشد خطرا من
الأعداء . ما أكثر ما نسيت ولكن ذاكرتى تأبى أن ينمحي منها
قولهم - وهذا بالنشر - « الأقارب كالعقارب » وقولهم - وهذا
بالشعر - :

« احذر عدوك مرة
واحذر صديقك ألف مرة

فربما اتقلب الصديق
فكان أعلم بالمضرة »

لفظت نفسى هذه الشبهة من الحكم والمواعظ لأنها
تهميم بعالم تلقى فيه الناس بقلب مفتوح ، وتأخذهم بعبلهم ،
التسامح لا النفاق سلاحها ، تعلو من رابطة القرابة ، وتعشق

الصداقة • ستسأل : أو لم تمر بك تجربة أثبتت لك ان هذه الحكم والمواعظ على حق ؟ أقول : ربما ، ولكن هذا هو النادر ، ان رضى لهذه الحكم والمواعظ ربما أذاقنى المر قليلا ، ولكنه أذاقنى الشهد كثيرا • ولو انى أخذت بها لبقى لى المر على قلته وضاع على هذا الشهد على كثرته • نعمت بصداقات عديدة كل واحدة منها تكفى لتكذيب هذا الحشد من الحكم والمواعظ ، ان أجمل ساعات عمرى هى التى تجمعنى الى أصدقائى : بالكتابة أو المجالسة أو أخذ الذراع فى الذراع والسير كأننا على غير هدى ، اننى مدين لأصدقائى بأكبر قسط من السعادة نلتها فى حياتى ، ما أحلى ترك النفس على سجيتهما مع انسان يحمل لك الود ويترك هو أيضا نفسه على سجيتهما •

أما الشعبة الثانية فهى حين رتبت الفضائل حارت ثم استقر رأيها أخيرا على ألا تضع على رأس القائمة الا فضيلة الكتمان والصمت ، الأدب العربى أغنى آداب العالم فى الاشادة بفضيلة عقد اللسان ، فأنت ترى ان هذه الشعبة لصيقة بالشعبة الأولى لأن من شروط الحذر كتمان السر واطباق النعم ، وحتى لو كان الصمت ضارا فهو أفضل من البوح •

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام •

رفضت هذه الشعبة كلها لأنى أهيم بحياة لا أجد فيها عيبا

أو دئسا أو دسيسة ينبغي سترها ، فإذا عقدت لسالى شغرت
بأنتى أكتم اثما اقترفته أو خطة سوء أدبرها ، ما أقطع جدران
الصمت التى نقيمها من حولنا بدل التواصل فواصل وعوازل ،
ما أحقق الذى يتكلم عن نفسه خيرا يعلمه الجميع .. فنحن
نعيش فى عالم كل سر فيه ينفصح اما عاجلا أو آجلا ، ويأتيك
بالأخبار من لم تزود . هذه الشعبة من الأمثال والحكم
والمواعظ هى السبب فى أن كثيرا من الناس يعيشون داخل
قواقع ، بل ان بعضهم ليقفل الكتاب الذى يقرأ فيه اذا دخلت
عليه ، بحركة تلقائية ، كأن مجرد قراءته لهذا الكتاب سر ينبغي
كتمانها . انتى أرثى لهؤلاء الناس من كل قلبى .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٩ ، ١٩٦٨/٢/٤ ، ص ٨)

أما الدروس من حوش المدرسة . . لا من الفصل

والكلام عن المدرسة الابتدائية التي تلقفتني من السابعة الى الحادية عشرة من عمري . عجنت طفولتي الخمس بيدين متخشبتي في ماجورها المتحجر ، بفك عناصرها وتذويها في ماء آسن أولا ، والالاحاح عليها بعد ذلك بالضغط والهيد والطم ، حتى اذا تم اندماج الكل في قوام واحد اقتطعتني بالتقريص ، بالزج في نار حامية رغيها ماسخا (فليس في عجين هذه المدرسة ملح) يشبه جميع أرغفتها الأخرى التي تأخذ طريقها الى المدرسة الثانوية وييدها شهادة . هذا هو هم هذه المدرسة . لها الظاهر أما الباطن فيظل مستعصيا كالنواة الصلبة ، العظام باقية تحت الجلد المصنوع لها .

في الفصل : الدروس حبر على ورق المصب في الذاكرة غصبا ، بلا فهم ، منبئة الصلة بالحياة والطبيعة من حولنا . لا نعلم لماذا لا بد لنا أن نعلمها ، وما فائدتها . الجلسة بالأمر

تربيع الذراعين • لا عجب أن أصيبت يدي بالشلل من فرط
الأدب •

في الفصل : عين تراقب حركاتنا وسكناتنا ، وتهوى بالعصا
على الكتف بسن المسطرة على أصابع اليد في عز الشتاء
والقشيف ، وأحيانا على باطن القدم أيضا • الكتكوت الذي يفك
صاغرا رباط الحذاء ثم يخلعه ، فوق ألمه خجله من جوربه
الممزق • أما الصفع على الوجوه فهو علاوله • كان من المستحيل
ألا يكون بين طقم المدرسة من هو غير مصاب بالسادية
أو ببذاءة سككية عجزية أو بدمامة الروح والذوق •

في الفصل : يجلس التلاميذ صفوفًا حسب طول القامة
أو البصر • شريكى فى التختة مفروض على ، ان لم أكرهه فهو
ليس أعز أصدقائى •

فاذا دق الجرس ايذانا بفسحة طويلة اندفعنا كطلقات
الرصاص كأنما من بؤس السجن الى نعيم الحرية • ما أعلى
الزئيط والزعيق • شاع الجرى والقفز • استرد كل تلميذ ذاته ،
أصبح فردا لا بد أن يجد مكانه فى المجتمع الطليق فى الحوش •
أن يواجه البشرية أخذا وعطاء • هنا - لا فى الفصل - محك
قدرته على الالتحام والمشاركة فى اللعب ، وفى معجم الألفاظ
المتداولة ، والرموز المتفق عليها ونوع الدعاية الرائجة • سيتبين
فى الحوش لا فى الفصل : هل هو قادر على هذا الالتحام فيندمج

أم هو عاجز عنه فينفصل • هل هو اشعاعى أم انطوائى • كيف يكون تلقيه للنصر وتلقيه للهزيمة • سيتبين ما هو طول هذا الخيط من المطاط الذى يشد عليه عزمه وارادته ، وأين ومتى ينقطع •

ستندلق أمامه فى الحوش مختلف الطبائع ، ولأنها لاتزال بكرا وخاما فهى مجردة من الأغشية والأقنعة ، لا تخجل من عريها ، مأخوذة كلها مأخذ القضية المسلم بها • لكل منا حقه فى الوجود ، فلم ينضج البصر والفهم بعد للانتباه الى القضاء ، والعجب له • ليس فى اليد بعد قانون متكامل تبنى عليه أحكام • أشبه حوش المدرسة بباطن الغابة •

فى حوش المدرسة استعراض للوداعة ، أحيانا للسكنة ، شهوة الاعتداء ، للسماحة والمكر ، للقناعة والجشع ، للكرم والبخل ، للخطف والشحاذة ، للقدرة على القيادة والرضا بالانقياد • صراع خفى لا ينتبه اليه أحد بين نوازع الخير ونوازع الشر ، ولكن حوش المدرسة يشبه الفصل فى خصلة واحدة ، هى خلو الاثنين من الرحمة ، بل نجد فى الحوش أن قسوة الطفولة — التى يقال عنها انها بريئة ، ملائكية — أعتى من قسوة المعلم فى الفصل • بعض التلاميذ لقوا فى الحوش عذابا لا يتصوره عقل • لا رحمة للأضعف أو للأذل أو للأخيب ، أو حتى للمصاب بعاهة هو غير مسئول عنها •

في حوش المدرسة الابتدائية تلقيت أول دروس في الجنس .
في الفصل كنا لا نلم به الا حدسا ، في درس الدين حين يكون
الكلام عن النجاسة الكبرى والنجاسة الصغرى ، ومتى يجب
الغسل ، ومتى يجوز الاكتفاء بالوضوء . تتقلقل في جلستنا
ونهر بضحك ماسخ في سرنا . وفينا من يحمى وجهه خجلا
ولا يدرى لماذا . ترى ما هذا السر الذي يحجبونه عنا ؟
لاشك أنه مهيب جدا ، وان كنا لا ندرك أهو جميل أم قبيح ،
رغم الايحاء لنا بأنه « عيب » من أشنع العيوب .

أما في الحوش فجو يتيح للغرائز أن تتنفس . من أجسادنا
الغريزة بدأ يتصاعد هبو لايزال كأنه تأتأة من يتعلم الكلام .
لو كانت لنا آذان بعض الحيوان لسمعنا أزيز هذه التأتأة
التي تملأ الحوش خفية منا . الفرد في الواحد مشرب لأن يكون
فردا في اثنين ، النوازع الى التكامل بعاطفة الحب تبدأ أولا باسم
الصداقة ، يبحث كل تلميذ عن رفيقه . قد يجده وقد لا يجده .
(هذا هو الحال بقية العمر) فإذا وجده أحس بالسعادة الكبرى
في صحبته ، هو الأثير عنده تمتد اليد لتلمس اليد ، ليسرى
التيار فيهما معا . ما أطيب وضع الذراع على الكتف ، أو أخذه
للذراع الآخر في تشبيكة حميمة . تموج هذه العلاقة عادة
بالاقبال والصد ، بالعتاب والاسترضاء ، بل بالغيرة المسزقة
المدمرة . ما أحلى الصلح بعد خصام . ما أتعس الذي خاته

صديقه فطار من يده الى عش غير عشه . هذه هى التجارب الأولى التى تنفض من القلب كل قدراته على التموج فوق بحر العواطف ، على تذوقه لما بين أقصى اللذة وأقصى الألم من درجات متفاوتة .

هذه هى البداية البريئة ، ثم لا تلبث أن تفترق الى طبقة تعلوها فى الافصاح عن الغرائز . يحوم فوقها شبح هذا السر الذى يخفيه المعلم والأهل عنا . فهذا التلميذ الصبوح الوجه ، أو المملوظ الجسد ، أو أبو العيون الخضرا التى يسيل منها العسل ، أو هذا المفرط فى أناقته ، أو صاحب هذه اللثة العجيبة — الحلوة — اذا تكلم نجد بيننا تميزه عن الجمع . يخيّل الى أنوفنا أنها تشم فيه رائحة تجذبنا اليه . نأخذ نرقب علاقاته برفقائه وأساتذته . أصبح كل واحد منا بوليسا سريا ، يدور الهمس عنه ، يتكاثر حوله كالذباب وقطعة السكر ، أشدنا جرأة وقدرة على الاعتداء ، ونقف نحن نرقب سرا وتابع حيل الصائد لاقتناص فريسته ، وحيل الفريسة للهروب ، هل تقع أم لا تقع .

أتدرى ماذا فعل المعجزة ؟ ألف بعضهم من فورهم جمعية أطلقوا عليها اسم « جمعية حماية الآداب » ، غرضها الأوحسد انقاذ الفريسة من الصائد .

فى حوش المدرسة — لا فى الفصل — تلقيت أول درس هام

في حياتي . فقد خامرني وأنا لا أزال في هذه السن الصغير
شك بأن أعضاء « جمعية الآداب » ليسوا حريصين على عفة
الذي يدور حوله الهمس ، بل غاضبون لأنها قد تقع في يد غير
أيديهم . بدلا من أن يذهبوا للصيد صراحة وبشجاعة تسللوا
اليه بالمكر والحيلة تحت قناع حماية الفضيلة . وكان أول فوز
للجمعية مدعاة لأن يتحول الشك الى يقين ، ف رئيس الجمعية
استولى على التلميذ الذي يدور حوله الهمس . أصبحنا نراهما
الا معا ، كأنهما في خلوة رغم الزحام ، بين الابتسامات وقطع
الشكالات ، وسمعنا أنهما يتفقان على مواعيد بعد الخروج ،
وأنهما يستذكران في بيت الصائد .

والله عال . والله عال . نسي الخائن أن هناك جمعية
اسمها « جمعية حماية الآداب » ، وأنه هو رئيسها . ونسى أنه
مكلف بدعوتها للائتماع ، فلما انحل الرئيس انحلت الجمعية .
ماتت بفضل فوزها الأول .

لم يكن غضبنا أنه وصل دوننا ، بل أنه استعبطنا واتخذنا
مطية وسلاحا يرهب به ضحيته .

منذ ذلك الدرس الأول في طقولتي لم أقطع بقية حياتي
عن الشك في كل واعظ اذا علا غليانه الى درجة التشنج والنحيب
تفجعا للفضيلة المذبوحة .

(« المساء » ، ١٨/٣/١٩٦٨ ، ص ١)

من كناسة الذكريات

كان احتفال البيت كله - الأب والأم والأولاد والصغار -
بزجل جديد ليبرم - بالعامية - لا يقل - وهم من عشاق
الفصحى - عن احتفالهم بقصيدة جديدة لشوقي . وصول
الصحيفة اليومية التي نشرت القصيدة - بالتشكيل - في
صفحتها الأولى (فلشعر شوقي دون بقية الشعراء مكان الصدارة
مهما كانت الحوادث والأخبار) ، أو المجلة الأسبوعية التي
نشرت الزجل - بدون تشكيل طبعا - في صفحة داخلية (لم
تكن الصحف اليومية تنشر بعد شيئا بالعامية . تركتها لبعض
المجلات ، فعصر صلاح جاهين كان لا يزال في عالم الغيب)
يالها من لحظة مضيئة في حياتهم . انهم تربوا على حب الكلمة ،
سواء مكتوبة سواء منطوقة ، والاعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها
الحق والمبتكر معا على امتاع الذهن والروح معا .

الأيدي تتخاطف الصحيفة أو المجلة والحجة اما مقام الكبير
أو دلال الصغير ، خطف يعرض الورق للتمزق . ولكنه خطف في

نطاق الود لا العداء • فهو مصحوب بالضحك والمعايشة • ان كان هناك غضب عند الهزيمة ، فهو مصطنع ، سريع الزوال ، ينتهى بالمهادنة ، لا يكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه ، ولنفسه بنفسه • لا بد لهم بعد ذلك أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكنا من اللغة واجادة للالقاء وهياما بالشعر الى حد أن تأخذه الجلالة ، ليتلو النص عليهم ملتزما نغمة الانشاد وحركة الخطيب ، لتشارك الأذن أيضا في المتعة • والعجيب ان لسان السامع منهم حين كان ينطق سرا في فمه بالكلمات وهو يقرأ النص بعينه ، ولنفسه بنفسه لم يكن يحس له بهجة التلاوة التي يحس بها الآن وهو ساكت داخل الفهم حين يسمعها تتلى عليه انشادا ، كانوا على غير علم منهم شهداء بأن الشعر فن يزكو بالانشاد المنعم جها ، ثم لا يجد تمامه ولا كمال رسالته الا اذا كان انشاده على جماعة من المستمعين المحبين له ، فهو في الأصل فن خطابي غنائى جماعى • انه يتطلب أن ينشأ تيار عاطفى متجاوب بين فرد وجماعة ، كما يحركهم ويطربهم هو بأنغامه المبكرة ومعانيه الفذة ويرفعهم من هموم الأرض الى صفاء ذرى الفن والجمال يحركونه هم بعناقهم له ، والاستجابة له ، فيثبتون ايمانه بموهبته ورسالته ، شرفها ونفعها وبهائها ، الوحي للشاعر حمى لا يتبرد منها الا اذا استحم في تيار عاطفى جماعى يتجاوب له ، وهو الذى فجره •

ومع أن اللغة العامية كانت هى خبزهم اليومى قائمهم كانوا

أقدر على قراءة القصيدة بالفصحى واجادة انشادها منهم على
قراءة الزجل بالعامية ، دع عنك انشاده ، فحركات التشكيل
والتنوين مساعدا على التنعيم . والحرف في الفصحى ثابت
لا يتبدل ، أما في العامية فالحرف يتبدل . كالهزة بدل القاف ،
والتاء بدل الثاء ، والكلمات - رغم صحة الوزن في البيت -
تبدو منشورة فرادى ، كأنها غير مترابطة ، لذلك كان يرسخ في
أذهانهم من القصيدة أبيات ، على الأقل بيت واحد يكون هو
بيت القصيد . أما عن الزجل فلا يبقى منه شيء . فكان يحثهم
ومتعتهم وظفرهم في قصيدة شوقي هو النغم والمعنى المبتكر ،
أما في زجل بيرم فهو النكتة ، خفة الدم واستجلاء سر عبقرية
اللغة العامية ، ظرفها ولطفها وبراعة كنايتها ، وكانت بضاعتهم
من النصوص العامية قليلة ، وقديمة ، كتاب يضم مجموعة أزجال
الشيخ القوصى ، وزجل قرأوه مرة وبقي شبحه ماثلا في أذهانهم ،
لأستاذ عبد الله النديم ألقاه ارتجالا في سباق مع الأدبائية
في طنطا ، أيام الصعلكة ، ولكن كل هذا كان له طعم الأكل
البائس . ذوق العامية تحول ، انه سريع التحول ، فلم يجسدوا
من يعبر عن حلاوة العامية في عصرهم الا في أزجال بيرم ،
لا يدانيه شاعر آخر ، اللهم الا اذا استثنوا حسين شفيق المصرى ،
فقد كان هو أيضا محبوبا عندهم ، ولكنهم لا يدرون لماذا
قدموا بيرم عليه ، لعل السبب أن حسين كان يطلع عليهم مرة
بزجل بالعامية ، ومرة بقصيدة بالفصحى - فهو موزع الاخلاص ،

لا يثبت على حب ، أما ييرم فقد كرس نفسه • كل نفسه ، لحب واحد ، هو حب العامية ، كان عندهم هو اللغة العامية في عصرهم • وكانت هذه اللغة هي ييرم • كانوا شهداء على غير علم منهم بأن الفن هو شديد الغيرة ، لا يقبل غريباً •

ولا ينسى ابنهم الثالث الى اليوم خيبة الأمل التي ضعفتها مرة ، كانوا قد فرغوا من قراءة زجل لييرم جماعة ، وانتشوا جميعاً بما فيه من ظرف وخفة دم • فأخذ وطار به الى صديق له وقال له جئتك بشيء عجب ينشرح له صدرك ، استمع ، وفرد الصحيفة وبدأت السمكة التي خرجت من بحرها تقرأ ، واذا لسانها يتلعثم ، واذا النغمة متأية عليه ، هوى الرجل من شاهر ووصل الى أذن صاحبه مهزوما مهشما ، قلم يتجاوب له ونظر الى السمكة مندهشاً حائراً من تفسير لهفتها وفرط العجب ، وأخذ صاحبنا يقلب الورق ليجث عن الظرف واللفظ ، وخيل اليه أنهما سقطا منه في الطريق ، فكان شاهداً على غير علم منه بأن أزجال ييرم لا تزكو الا اذا جاشت لغته من قبل عواطف المتلقين ، انها ضرب من الفن يحتاج الى ألفة ودربة قبل أن يتم تذوقه ، وعاد الى بيته مدلل الأذنين • وقد باخ تحفزه وتلجج لهفته وان زاد حبه لأهل بيته وخمده لربه أنه نشأ بينهم •

وظل البيت وفياً لييرم ، باقياً على حبه والاخلاص له ، يحزنهم

أشد الحزن أن يفلت منهم زجل له ، وظلوا يتتبعون أخباره ، ويرثون له وهو يتلطم في غربته في فرنسا ، ويضحكون معه وهو يروى لهم حكايات « سيد ومراته في باريس » . ما أشد اعتزازهم باحتفاظهم بأعداد مجلة « المسلة » التي كان يصدرها ويعجبون بفضلها بجرأته ووطنيته ، وإن ضاق صدرهم قليلا ببعض « التلميحات العامة » الفجة من قوله « الباميه الملوكي والقرع السلطاني » تحية لمولد ولي العهد ، حقا أن الخط الفاصل بين رقة الذوق وفجأته في العامة وثيق كالصراط يوم الحشر ، وكانت أعز أمنية لهم أن تكتحل عيونهم برؤية بيرم ، حبذا الجلوس إليه ولو مرة ، أما الاختلاط به ومصادقته فأمل بعيد المنال ، لأن فيهم بطبعهم عزوفا من الهجوم على الناس . ورمى الجنت عليهم ، أما إذا جاءهم انسان فأهلا وسهلا ، يعوضون بالاغراق في الحفاوة به والاسراع الى مصادقته ما فاتهم من الروابط التي عجزوا هم عن توثيقها بجهدهم ، ولما جاءهم ذات يوم خبر عودة بيرم لمصر ونجاته من البوليس كان هذا اليوم عندهم يوم عيد ، (ويبرم كلمة تركية معناها : العيد وتنطق بفتح الباء وتسكين الياء) .

يرجع مرجوعنا ، كبر الابن الثالث وبدأ يكتب كلاما في الصحف والمجلات ، لم يعجب وإن كان من العجيب أنها قبلت نشره ، فتمطع ذات يوم وكتب مقالا يشيد فيه ببيرم وأزجاله ، وعده أيضا اماما في فن القصة القصيرة ، اغاظة لمن يكتبونها

بالفصحى ، وظهر المقال فى مجلة ، فتمطع وحزمها وأرسلها
بالبريد المسجل الى بيرم وهو مقيم فى باريس ، بعد أن حصل
على عنوانه من الصحيفة التى ينشر فيها مذكرات « سيد ومراته
فى باريس » . كأنه يريد أن يقول له : فى مصر انسان يحبك
ويعجب بك ويشيد بفنك ويهمه أن يبلغك هذا الحب وأنت فى
غربتك ، الحقيقة أنه كان يريد أن يقول له قبل كل شئ : انظر !
اننى بدأت أكتب ! أصبحت أسير فى ركابك .

لم يحدث أن قطع نداء من ناشئ لأستاذ ما قطعتة هذه
المجلة من مسافات عبر البر والبحر ، ومع أنه كتب عنوانه تحت
امضائه فإنه لم يتلق ردا . يقول وهو يغالط نفسه انه لا يطمع
أن تصله كلمة شكر ، كل الذى يرجوه سطر واحد يخجل من
« بيرم » تحية ، ليمتد بين الاثنين جسر ولو فى الهواء .

ومع ذلك فمن فرط حبه لبيرم لم يحزنه أنه أغضى عنه
وأهمله ، دون أن يدري أن نفقة ارسال المجلة بالبريد المسجل
كلفت المحب نصف مصروفه الشهرى .

ومرت شهور ، وربما أعوام ، ونسى حكاية المقال
والمجلة .

و ذات يوم ابتسم له الحظ ، والتقى ببيرم ، فذكره بحكاية
المقال والمجلة ، أول كلام . اعذره فقد كان لا يزال فى ميعة
الصبا ، متلهفا على شهادة بأدبه تخرجه من الظلام الى النور .

سأل يريم : هل وصلتته المجلة ؟ هل قرأ المقال ؟ فإذا به
لشدة دهشته لا يجد من يريم شكرا ولا حنانا ، بل وجده قد
أربد وجهه وأغبر وفاجأه بقوله :

— هو أنت ؟ الله يخرب بيتك !

ثم روى له أنه كان في باريس يشكو من الجوع • ليس
في جيبه من الفرنكات ما يكفى لأكله في يومه • أنه ينتظر على
أحر من الجمر أن يصله بالبريد أجر بعض مقالاته • فلما
وصله أخطار من البريد أن له عنده طردا مسجلا هرع اليه
كالمجنون • اذن جاء الفرج ، وأيقن أن الأمر اختلط على
البريد ، فالذى وصله ليس طردا مسجلا ، بل مظروفا مسجلا
داخله شيك على بنك ، والا فان صديقا في مصر قد حن عليه
فأرسل له بعض الملابس أو بعض المأكولات • ومنى نفسه
بدفعه أو شبع ، فإذا به يفاجأ بالبريد يطالبه بدفع أرضية لأنه
كان قد غير عنوانه أكثر من مرة فلم يصله الاخطار الا بعد
تأخير •

وسأل عن المبلغ المطلوب فإذا به يستنفد كل ما في جيبه •
لو دفعه لا يبقى فيه فلس واحد ، والجوع باق يعطق فيه ،
فنسى نفسه وحصافته من شدة اللهفة ، ودفع المبلغ فإذا به يستلم
طردا ما كاد يفكه حتى وجد فيه مجلة ، قديمة فوق البيعة !

وماها على الأرض من فوره وهو يلعن ويسب من أرسلها له
وتسبب في دفعه للغرامة ، وهى كل ما يملك ا

ثم أنهى روايته وهو يقول : تعلم الآن أنتى لم أقرأ مقال
حضرتك يا سيدى ..

وكانت قد ارتسمت في ذهنه ليبرم - غيبا - صورة رجل
ظريف ، بجبوح ، ابن نكتة ، سريع الاقبال على جليسه ويهش
له . رجل يكره الغم والنكد ، تاج من الأحقاد ، لا يحب
الشكوى ، سعيد بالمكائنة التى بلغها .. فاذا به لشدة دهشته
يجد يبرم حين التقاه على تقيض هذا كله . وجده انسانا يحب
العزلة ، من الصنف الذى يكره أن تلمس يد غير يده ذراعه
أو كتفه . يطيب له أن يجلس وحده في مقهى بلدى في حى
شعبى ، منقبضا ، مكورا على نفسه . والتكور أيضا صفة جسده
ورسم وجهه . ملامحه تكاد تنطق بأنه يشكتم زمجرة ترتكض
في أحشائه ، خيل اليه أنه يجز على أسنانه . ولما جلس اليه أحس
أنه لا ينتظر منه الا الحديث المقتضب ، كلمة ورد غطاها ،
ليس له صبر ولا مراة على اللت والعجن . فاذا تحدث هو لم
يكن حديثه الا عن شكوى من مطربة أكلت حقه ، وعن الاذاعة
التى أهملت أو برت له . في صوته نغمة الشكوى من ظلم
واقع عليه ، وأن حقه مهضوم .

لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو طبع يبرم الغالب عليه

في جميع حالاته ، مع جميع الناس ، ولكنه يستطيع أن يشهد
أنه هكذا وجده في المرات القليلة التي جلس فيها إليه . ثم صار
بعد ذلك يتحاشى اقتحام خلوته ، لأنه لم يفلح — كما كان
يتمنى — في أن يمد جسرا بينه وبينه ، هذه المرة على الأرض
لأعبر البر والبحر ، ليجد في نهايته يرم الذي تغنى بأزجاله
مرارا ، قارئا وسامعا ، فكان يسكر طربا للطفه وخفة دمه .
وظل يتتبعه من بعد ، ثم بدأ يضع يده على قلبه خشية
أن يغتال تحول ذوق العامية السريع امام العامية في عصره ،
فيسبقه الزمن ومصطلحات جديدة توافق عصرا جديدا يقدم
بخياله ورجاله وسلطانه وهيلمانه .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٣٧ ، مايو ١٩٦٨ ، ص ٢ - ٤)

وجهها .. لوجهه .. !!

أول مرة شهدت فيها انسانا يحتضر أمامي • يكاد فمي يلمس فمه من فرط انحنائي فوقه • أطل على تلك اللحظة المذهلة التي تقلب الحياة فجأة الى موت ، وال (أنا) فيمن يلفظ آخر أنفاسه الى (هو) أبدية • تنقل بقية الوجود الى عدم ، الحركة الى جمود • تعدد تعبير متجدد الى شلل قناع على وجهه • هل يريد أن يقول لنا شيئاً ؟ • هيهات له ولنا • لغته ليست لغتنا • انتهت الصلة بيننا بلا عودة • تنقل بثة واحدة منطلق جميع الفلاسفة في عقد صلح بيننا وبين الكون الى لغز مستبد لا يعرف مخلوق سره •

انه السر الالهي لا نملك ازاءه الا السكوت • ليس في يدنا علاج ، ولا طاقة لنا على الفهم • سكوت يجمع بين بلسم الرضا والتسليم بحكمة الله ، وجرح حسرة بلهاء مشوبة بشيء من حنق مكتوم نخجل من الجهر به • فالذي يجهر به نراه جن أو كفر •

وقد أريد لى أن يكون أول موت أشهده هو موت مصفى
من كل عارض عاطفى قد يزيغ بصرى عنه أو يفسد على الرؤية
المباشرة المحايدة • لادخل فى نظرتى للذاتية أو المصلحة
أو الهوى • لن أكسب شيئاً ولن أخسر شيئاً ، فالذى حضرت
موته لم يكن من أقربائى أو أحبائى أو أصدقائى ، بل كنت
لا أعرف اسمه ولا آماله وهمومه ، ولا أين يسكن والى من
يؤوب حين ينتضى سعيه فى يومه ، فكأنتى فى معمل كيمائى نجح
فى عزل ميكروب الموت ووضعه منفصلاً تحت المجهر أمامى ،
بلا طفيليات •

وقد يظن من كلامى — كما يقضى منطق — أتنى حمدت
لقدر رحيم أن قسم لى فى التجربة الأولى هذه المواجهة المحايدة
فبصرنى دون أن يفجعنى ، ولكن العكس هو الذى أقصده
من كلامى ، فان هذه المواجهة كانت لها عندى بسبب هذا
الحياد بعينه أثر العنف المزلزل ، لأتنى رأيتنى لا أحضر موت
انسان ، بل موت الانسان •

فأريد لى كذلك أن يكون أول موت أشهده هو موت يعد
أبداع مثال على أن الذى يربط الانسان بالحياة انما هى شعرة
أوهى من خيط العنكبوت ، ها هى ذى تنقطع صدفة ، ومن
حيث لا تنتظر وضد كل منطق وحسبان وتقدير ، كأن السخف
صفة لا تعرفها الحياة وحدها أحياناً بل يعرفها الموت أيضاً

أحيانا ، والسخف يليق بالحياة اللعوب ولكنه لا يليق بالموت
الجليل . من أجل هذا زاد ذهولى ضعفين .

لم يكن من تلامذة فصلى ، بل كنت أراه وقت الفسحة في
حوش المدرسة السعيدية (١٩٢٠) أو وهو راكب في ناحية
أخرى من عربة الترام وأحيانا مشعبطا على السلم ، أصادقه في
الاياب عصرا أكثر من الذهاب صباحا . لم يدر بيننا كلام ، ولم
تبادل التحية ، ولكنه كان مع ذلك مفروزا عندي عن بقية
زملائى المجهولين غير منضم الى شلة ، تكفيه نفسه ، يعتز بكرامته
يستوقف نظرتى انفراده بكبسة طربوشه فوق رأسه ، كأنما
يلبسه لبس عمامة . رأس ضخم يبدو داخل الكبسة كأنه غير
مستدير بل مربع كحلقة العمامة .

ما فتئت منذ صغرى أفتن بضخامة الرأس واتساع الجبهة
وارتفاعها ، وحبذا لو كانت مضيئة غير كايية . هي عندي
« دينامو » جبار أحس احساسا أكيدا بأن تيارات كهربائية
خفية تنبعث منه ، ومازلت مقتونا رغم الأبحاث التى تفصل
بين الذكاء وحجم الرأس . وقررت أن له عقلا كبيرا وذاكرة قوية ،
يهضم ما يقرأ أول مرة ولا ينساه . وغبطته على حسن حفظه .
عينان صافيتان يترقرق فيهما الحياء ، تريدان أن تضحكا ومنك
أن تشاركهما الضحك . . . فى صمت ، وحتى من بعيد لبعيد .
فطرة ثابتة غير تائهة ولا مبشرة ، كأن النظر عنده لا يعنى

الا التأمل • النظرة هي التي جعلتني أقرر أن رأسه الضخم يحوى عقلا هو أيضا ثابت غير مضطرب ولا مرتبك ، له قدرة فائقة على الترتيب والتصنيف وتقديم الأهم على المهم • يتناول كل شيء في أوانه • اذا عكف على عمل لا يقوم عنه الا اذا أتمه ، حتى ولو دق الطبل البلدى الذى لا ينجح شيء سواه فى هش الوطاويط اللاصقة بوجه ضحيتها ، وأنه اذا قرأ كتابا للمتعة لم يعدل عنه بعد صفحات قليلة لغيره ، ثم لغير غيره •

الملل عنده نوع من الدلع والصبر رأس الفضائل •

اذن هي رأس كالزلطة اذا خبطتها فى الجدار انكسر الجدار ولم تنكسر هي •

كتفان عريضان وان كان الجسم قصيرا - أشبه ما يكون بمثلث مقلوب القاعدة - لاشيء يحمل مثل هذا الرأس الضخم! الا مثل هذين الكتفين العريضين • ربطة عنقه مشتراة ولا ريب من على عربة يد أو علاقة فى درفة فى سوق البواكى بالعبية الخضراء • بريق على فشوش ، ولون لا تضمه (باليت) أى فنان حتى ولو كان من أنصار السيرالية ، ومع ذلك كان من الواضح أنه معتز بأناعتها ، لأنى لم ألمحها قط مزحجة من تحت ترقوته الى يمين أو يسار ، أو الطية القصيرة التحتانية منفلتة هاربة من تحت الطية الطويلة الفوقانية • عند أغلب زملاى حيثئذ ربطة العنق مقص مفتوح •

كل شيء فيه ينتهي الى أنه من أصل ريفي متقشف ، مستور
رغم الفقر ، ولعل صلابة رأسه الضخم حملني على الاعتقاد بأنه
من الصعيد . ولو زاره « دارون » لقال ان الضرب بالشوم
فوق النافوخ هو الذي أنتج صلابة هذه الرؤوس ، وخيل
الى أن جسمه قد ترعرع على طعام عماده البصل والعسل
الأسود ، وأنه لكثرة أصابته بالأمراض أصبحت له مناعة تغالب
أفتك الميكروبات .

جسم خليق بأن يعيش مائة سنة ، دون أن يعتم بصره
أو يتهم فكه ، وكنت واثقا أنه سينجح سنة بعد سنة ، وأنه في
المهنة التي سيختارها سيصبح أستاذا يلمع اسمه لا ارضاء لنفسه
فحسب ، بل لأسرة تحتضنه وترقبه وتعلق عليه أكبر الآمال ،
ستطول به رقبته في القرية ويعم خيره ويفيض على أهله وعشيرته
كلها .

وقبل أن أتم حديثي عن المدرسة دعني أقدم لك كامل
أفندي الأزوت ، لأنه سيلعب دورا كبيرا فيما بعد . شاب نحيل
ضعيف دائم الارتباك واللهوجة ، لا تراه الا مندفعاً من باب
يصدمه في الدخول والخروج . يلبس نظارة بلا اطار تحتقر
الأذنين وتنشك بقبضة الأتف بكماشة من ذبابتين ، لا يربطها
بقيطان الى عروة سترته ، وكان يدهشني أنها رغم اندفاعه لم
تسقط قط أو ترتفع فيها كفة عن كفة . هو محضر معمل الكيمياء

في المدرسة ، وكنا ننظر اليه باستعلاء واستخفاف ، فلا هو أستاذ ولا هو تلميذ أو فراش ، بل هو شيء بين بين . وكنا نؤمن أنه بلغ ورضى أن يقف في المؤخرة لأنه عاجز عن شق الصفوف . لن تراه في الحلقة الملتفة حول الحساوي الا واقفا على الهامش ووراء رجل أطول منه .

وكان أستاذ الكيمياء قد طلب من كامل أفندي ذات يوم أن يعدله الأزوت قبل بدء الحصّة . فلما دخل المعمل ونحن معه لم يجده فصرخ مستفهما : « يا كامل أفندي .. الأزوت ؟ .. » منذ تلك اللحظة أصبح اسمه عندنا كامل أفندي الأزوت ، وزاد استخفافنا به .

في عز حر صيف وعز المذاكرة .. لم يكن قد بقي على الامتحان الا أيام معدودات . أجساد التلاميذ وعيونهم ذابلة ، مجهدة . الغيطان التي مررتا بها في الصباح ممتدة من كوبري الزمالك الى الكوبري الأعمى (هكذا كان اسمه) تعلوها شجرة من رطوبة ثقيلة ، ومع ذلك لم تخنق بهجتها ، بل زادت سحرا بغموضها . لا يملك القلب ازاء جمال الطبيعة الا أن يسبح بحمد ربه ، ثم ييجث عن شعر يحفظه ليرتله سرا . ليس هناك الا فيلا واحدة صغيرة ، هي لشقيق حافظ رمضان ، ثم قرية العجوزة كأنها دمل في وجه القاهرة .

في العودة ظهر (اذ كان اليوم يوم خميس) الغيطان تكاد

تسقط من شدة القيظ . كل ما تلمسه ساخن حتى خشب مقاعد الترام ، بما في ذلك أسفلت كوبرى الزمالك ، تستطيع أن تقلى فوقه بيضة . كنت راكبا همدانا في آخر مقعد في العربة القاطرة محشورا بين معارف وأغراب ، ظهري الى ظهر السائق في مقدمتها . وأمامي العربة المقطورة تتأرجح من فوق لتحت ومن يمين الى يسار وبالعكس .

رأيت واقفا مزحوما مشعبا على حافة طرف السلم الكنز في مقدمة هذه العربة ، قد ثبتت له قدم وبقيت الأخرى طليقة كأنها ملتذذة بحريتها في الهواء في كل مطب يضرب الكعب الحر الكعب الثابت ثم يفترق عنه . في لفة ذراعه الأيمن رزمة من الكتب مختلفة الأحجام لا بد من ضغطها على ضلوعه ونحو أبطه لئلا تنفطر وتسقط ، وذراعه الأيسر ملتف كالحلقة الناقصة حول العمود الحديدى الواصل بين سقف العربة وأرضها ، يمسكه به عضة من ثنية كوعه عليه . هذا وضع أشد اراحة له مما لو قبض عليه بيده اليسرى فتلسعها حرارته ويذب فيها الخور بعد قليل (أسألنى فقد تشعبت مثله وفي موقفه مرارا) .

في بعض المنعطقات المأخوذة خطفا كانت رزمة الكتب تدور مع جسمه وتصدم وجه جدار العربة الأمامى القصى فيميل ويزيد - وهو يتسم من ضغطهما على هذا الجدار حتى يملك

توازنه الى أن ينقضى المنعطف ويستقيم الشريط • بينى وبينه
أقل من نصف متر • العينان هما هما رغم الذبول صافيتان
يتفرق فيهما الحياء تريدان الضحك ، ومنك أن تشاركهما
الضحك ، التسأمل ، الفهم المطبق على لسان غير ثرثار (اتنى
لا أذكر شيئا عن صوته) • العزم على المضي رغم الصعاب ، على
النجاح بأي ثمن • لا دلع ولا مدرس خصوصى •

وجئنا الى كوبرى الزمالك • هان المشوار ، وزمر
الكومسارى (ولا يدرى أحد أين هو ، ولا يدرى هو حال
النازلين والصاعدين) ، واتثنى الترام الى اليمين ليعبر الكوبرى
منعظا ، اذ أخذه خطفا • تمايلنا ضد حركته وصدم بعضنا
بعضا بالأكثاف ونحن نسخط ونبتسم معا •

في لحظة مرت كالبرق رأيت رزمة الكتب تدور يسارا مع
قدمه الطليقة لتصدم وجه جدار المقطورة • أصبح جسمه كله
معلقا في الفراغ بين العربتين • دار حول كعبه الثابت • تراخت
عضة كوعه على العمود من عضة الجذب الى اليسار • انقلب
العمود من الجزء الناقص من حلقة ذراعه الأيسر • شده ثقله
كعبه الثابت وأزاحه عن موضعه • لا أنسى منظر أصبعه البنصر
في يده اليسرى ، يحاول أن يستدير ليقبض على العمود •
العمود أضخم من حلقة • كدت أسمع حكة هذا الاصبع ا
بالحديد • لاشك أن جلده قد تسلخ •

وهوى وغاب عن عيني • تناثرت الكتب كرش الملح ، ثم
طب ، طب • قفزت المقطورة مرقين كأنها هرست ريشة وضعها
صبي معاث على الشريط ، مرة بالعجلة الأمامية ، ومرة بالعجلة
الخلفية •

فززان من المقاعد • صراخ • حاسب ، حاسب • فرمل ،
فرمل • كل من شاهد مصرعه تكهرب جسده وامتقع لونه •
أحسست أن شعر رأسي كاد يقف ، فالفروة سخنت فجأة
وألمتني • ونزلنا وجريتنا الى الوراء ربما عشرة أمتار ، فاذا هو
ملقى على ظهره فوق أسفلات يكاد يغلى • بترت ساقه (لا أذكر
أهى اليمنى أم اليسرى) بترتا تماما من فوق الفخذ وانفصلت ،
مطروحة بعيدة عنه ، لا يزال حذاؤها في القدم ، رباط الجذاء
غير منحل •

لم يخرج من أحد منا أن يفعل له شيئا • شلنا الارتباك
والذهول ، أو قل الخوف ، بل الذعر أيضا • وفجأة برز كامل
أفندي الأزوت من وسط الزحام • زايله انمحاؤه وربكته •
اتخذ هيئة قائد في معركة • كان أكثرنا ثباتا وأقلنا اضطرابا •
خلع جاكته وألقاها على كتف أحد الواقفين (لعله خشى عليها
من التلوث) وأخرج مناديله يحاول بها كتم العروق المتهرقة ،
يتفجر منها الدم الأحمر في نبضات ، ثم طلب منا بلهجة آمرة
صارمة ، لهجة السيد الى أتباعه ، أن نسغه بقميص ليعصب به

الساق فوق القطع • لازلت أذكر صوت تمزيقه للقماش رغم
الضجة ، وكنت قد اندفعت فوقه ، ربما بتدافع الواقفين ورأى •
فمى يكاد يلمس فمه • العينان هما هما صافيتان • الفم مطبق •
لم يصدر منه أنين ولا توجع ولا آهة أو تنهيدة • لم يجز
على أسنانه • شمل الوجه استسلام لا حذ له • لم يغب عن وعيه
ولكنه لم ينطق بكلمة • أتراه من شدة الهول لم يكن يشعر بأقل
ألم • نحن نصرخ من جرح صغير ••

لم أنس الى اليوم نظرتة وهى تدور علينا ، تنطق بالود
وكانها تقول لنا تعجبوا معى لما حدث • ومع أن نظرتى بقيت
مسمرة على وجهه الا أنها زادت بعد قليل لاهتمامات حقيرة
أخرى • منظر الدم المتجمد فوق الأسفلت الساخن وقد اغرق
لونه • ماسورة العظمة المغروزة وسط الجزء الباقي من الفخذ
وحافتها المشرشرة • منظر لحم الانسان من الداخل ولم أكن
رأيت من قبل ، الحذاء المبتور ورباطه غير المنحل •• منظر
كامل أفندى الأزوت ، متألم وسعيد معا •

وقبل أن تأتى عربة الاسعاف تدق جرسها كان قد لفظ
آخر أنفاسه واكتسى وجهه بالقناع •

وسرت كعابى لنهاية كوبرى يولاق لآخذ ترام الامام
الشافعى اذ كنت أسكن حينئذ فى شارع محمد على •

(« المساء » ، ١٩٦٤/٨/٣١ ، ص ٨)

الموت

حين يتقدم الليل ، تتصنعين الرقاد ، هادئة كالعصفور ،
ياوى متعبا الى عشه ، يضم رأسه الى جناحيه ، ويغمض عينيه ،
مستسلما لمشيئة الرحمن ، توهمين أهلك وأعزاءك أنك قد
أغفيت — وان كان رقادك على مضض — ليناموا هم بسلام .
أهب من سباتي مذعورا ، فى بهمة الليل ، والسكون شامل ،
وكل ما فى الغرفة أشباح غامضة ، فأتبين جسدك الرشيق
كالطيف الشفاف ، وأجدك قائمة ، قد انحنى رأسك يكاد يلمس
الفراش ، أنك تسجدين لله عسى أن يرحمك ويخفف عنك
العذاب ، تمدين فى حذر الى كوب الماء يدا يكاد خاتم العرس
القريب يسقط من اصبعها النحيلة . . فاذا ما تلاقى نظرتنا ،
تبسمت وعدت الى رقادك ، تظنين أننى لم أسمع أنك المكتومة .

كنت — لأنك فى ميعة الصبا ، ورفاهية من العيش توجمين
من لمع بعوضة ، فتحملت مبضع الجراح يمزق لحمك بغير
مخدر . وكنت تتأذين من أهون الدواء ، فجرعت أشكالا

وألوانا من سموم تهد الجبال ، وأنت صابرة ، وكنت تجفلين من
منظر (الحقنة) وتحسين لها حسابا ، فعشت شهورا طويلة وهذه
الابرة الكريهة تلاحقك وتنغرز في عضلك كل ثلاث ساعات
مرة ، ليلا ونهارا . بل لقد رأيتها ذات يوم تنفوس في مقتلتك ،
وأنت لم تقنطى من رحمة الله . وجاء اليوم الذى اضطرب فيه
صدرك ، واختنق حلقك ، وتلاحق زحيرك ، وتلجج لسانك ،
فأخذت تسأليننى بيدك عن الطبيب متى يأتى ؟ فلما همدت اليد
أيضا تشببت بى عينك تقول : هذه نهاية حياتى ! وكان آخر
ما انبعث من حلقك بعد ذلك من أصوات هو أول كلامك وأنت
فى عالم الأرواح .

دب اليك الداء ، لا كالحية الرقطاء تنغرز أنيابها فى حى
لتسلها عن ميت ، بل كأفعوان هائل قد انمقد فى حلقات متشابكة،
بعضها فوق بعض ، لمسك أول الأمر بذيله فأشلتك اللمسة
ونحن لا ندرى ، فلما اطمأن لعجز فريسته أخذ يتلوى ويتماوج
ليخلص رأسه متمهلا يسيل لعابه ، متذوقا من قبل للذته . اذا
رأى منك بادرة هروب لمسك من جديد بذيله لمسة رفيقة ،
ونحن لا ندرى . واقتضته أيام وأسابيع وشهور طويلة لينفث
رأسه فيقيمه ويصوب اليك عينين كالجمرتين . ما كان أطول
عذابك ! أتلوميننا اذا صرخت أنايتنا اليوم وقلنا : ليتها بقيت
مريضة مقعدة ، وظلت بيننا أبدا .

وطرق الباب طارق لم يسمعه أحد الا طفلتها الرضيعة فيها هو
ضحكها ينقلب نحيبا لا ينقطع أربعة أيام • من القادم ؟ أيها الادراك
المكنون في جسم رضيع : انطق ولو أهلكك البوح ! ماذا رأيت ؟
والطارق صابر بالباب ، فلما جاءه الاذن دخل علينا ، فانبعثت
منها رائحة صلصال مبتل • لم تره عيوننا ، ولكن أرواحنا
شعرت بقدوم ضيف غريب : عليه بشاعة العدم ، وجمال الخلقة
الكاملة ، فيه اشراق الحكمة في ذاتها ، واظلام عبث جدواها ،
نحن أيها القادم لا نعرفك الا باسم واحد ! هو الرعب ! أحنينا
أمامه الرءوس ، ووقفنا بين يديه جهلة حائرين •• ودار بينهما
كلام أشرق له وجهها وطاب حديثها ، ورضيت نفسها •

وخرجنا من حيرة الموت الى حيرة أشد قسوة • حيرة
الحياة • كانت قد أرخت لنا قبضتها قليلا ، فسارعت وشدتها
بقوة وجبروت على أولاد لها ضعاف حائرين •• أكلنا ••
ونمنا •• وبعد أيام تسربت أولى الابتسامات الى بعض الشفاه
الحزينة ! •

(مجلة « الثقافة » ، العدد ٢٢٢ ، ١٩٤٥/٥/١٥ ، ص ١٥)

(٢)

من ذكريات الحجاز

يا جحا . . . ودنك منين ؟

الأزمة التي تمر بها الآن علاقتنا بالسعودية تعيد الى ذهني ذكرى أول منصب لى فى السلك الدبلوماسى والقنصرلى .

فى سنة ١٩٣٩ كان الدكتور حافظ عفيفى وزيرا للخارجية فى وزارة محمد محمود التى عطلت الدستور . رشحه لهذا المنصب عمله السياسى المتصل وخبرته بالقضية المصرية منذ تطوعه وهو شاب حديث التخرج من مدرسة الطب بالالتحاق ببعثة الهلال الأحمر الى ليبيا لتكون بجانب المدافعين عنها فى وجه الغزو الايطالى سنة ١٩١٢ ، ومروره بعد ذلك بالأحزاب السياسية . الى أن انتهى الى حزب الأحرار ، وأشرف على تحرير صحيفة « السيامة » ، ثم شغله بعد ذلك لمنصب سفيرنا فى انجلترا ، حيث ألف كتابا عن تجاربه بها أسماء « الانجليز فى بلادهم » . يتهمه بعض خصومه بأنه امتعان فيه بأبحاث مرؤوسيه فى السفارة دون أن يذكر أسماءهم . . (الله أعلم) .

لعل اعجابه بنظام وزارة الخارجية الانجليزية التي عرفت ،
وهي لا تفتح أبوابها الا لأولاد الأعيان ، كيف لا تقبلهم الا بعد
امتحان عسير يشيب لهوله الولدان .. هو الذى أوحى اليه أن
يحدث خرقا عظيما فى أنظمة وزارة الخارجية المصرية
وتقاليدها .. فقد كانت هذه الوزارة مشهورة بأنها معقل
المحسوبة والوسايط ، وأن وظائفها قاصرة على أولاد الأعيان
المتسخين بالأعتاب الملكية — ولو كانوا من الهلافت —
يدخلونها بغير امتحان •

هذا ما حدث عند انشائها بعد « تصريح ١٨ فبراير » ،
وقسط كبير من المسئولية يقع على عاتق حسن نشأت • فلما جاء
عبد الخالق ثروت للحكم فصل بجرة قلم أكثر من نصف موظفى
السلك الدبلوماسى والقنصرى • لعلها أول حركة تطهير شاملة
عرفتها الدواوين عندنا فى تاريخنا الحديث •

بدل « ثروت » طقما ظنه صالحا بطقم حكم عليه بالفساد •
وقف عند هذا الحد وعجز عن أن يضع نظاما يكفل تحقيق المصلحة
العامة • لعله فطن فى نهاية الأمر الى أن لا عمل لهذه الوزارة
ما دام الاحتلال باقيا ، فهي اذن جهاز للزينة ، فلا خطر من جعلها
دمية براقه يلهو بها الملك الجالس على العرش • هو الذى يرسم
لها مقدار القصب المذهب الذى يتحلى به الزى الرسمى للسفير ،
وتراجعنا بالفائض الى أن نبلغ زى الملحق الدبلوماسى الذى

لا يزيد فيه القصب المذهب على زيق صغير على طرفي الكمين ،
ومن حول الوسط والرقبة •

وكانت وزارة الخارجية تشترط أيضا أن يقدم طالب ودها
اقرارا بأن له ايرادا خاصا لا يقل عن عشرة جنيهات •

لم يستطع حافظ عفيفي أن يكسر شرط الايراد الخاص •
لعله كان مقتنعا بحكاية « المظهر اللائق » المطلوب لموظفي السلك
الدبلوماسي والقنصلي ، ولكنه تحايل على الهرب من ضغط
الوسائط بأن قرر عقد مسابقة تحسّط بقدر من الضمانات - في
حدود الامكان - ولا يكون التعيين الا من نصيب الفائزين ،
حتى ولو لم يكونوا من أولاد الأعيان •

كانت أول مسابقة تقيسها وزارة الخارجية ، فجرى في
عروقها دم جديد • البذور الصالحة أينعت ، وتألقت أزهارها •
يكفى أن أضرب المثل بالأستاذ محمد عوض القونى ممثلنا
الدائم في الأمم المتحدة الآن ، فقد كان من هذه البذور الصالحة
التي كسبتها وزارة الخارجية بفضل هذه المسابقة •

أما أنا فقد جئت في ذيل الناجحين ، فلا عجب أن اختارت
لى الوزارة بلدا يعد في نظرها في ذيل بلاد العالم كله • أعنى
به جدة المثلثة الحركات - بفتح وكسر وضم - والله أعلم
بالنطق الصحيح •

وكما كان بعض العمد والمشايخ يضحك على ذقن الحكومة بتقديم اقرارات بأنهم يملكون من الفدادين ما يتحقق به النصاب المطلوب لوظائفهم ، وتكون الأرض في حقيقة الأمر ملكا للأسرة كلها - حتى أقارب الأقارب .. كذلك ضحكت أنا على ذقن وزارة الخارجية وقدمت لها اقرارا مماثلا بأن لى ايرادا خاصا قدره عشرة جنيهات شهريا .

ولم يتأخر عنى جزاء هذا التحايل ، اذ اننى أدركت ، حين وصلت جدة فى مارس سنة ١٩٢٩ ، أن الحكومة هى التى ضحكت على . فقد زعمت لى أنها عينتنى أمينا للمحفوظات فى القنصلية المصرية بجدة ، فاذا بى أتبين منذ أول يوم أن ليس فى معلوم انحكومة السعودية شىء اسمه القنصلية المصرية بجدة ، اذ كانت العلاقات مقطوعة بين البلدين .

ليس لنا قنصل فى جدة ، بل نائب قنصل ، لا تعترف به السلطات الرسمية . وكانت مصر قد سحبت القنصل منذ زمن . أما الشيخ فوزان سابق - قنصل السعودية فى القاهرة - فقد بقى بها ، ربما لأن له خيولا تجرى فى السبق ، بدون أن تعترف به الحكومة المصرية أيضا .

كان نائب القنصل لا يدعى للحفلات الرسمية ، وشأنى شأنه طبعاً . وظن ذات يوم أن الجو بدأ يصفو حين تلقى دعوة لحضور إحدى هذه الحفلات ، وكان مكتوبا على الظرف « فلان

الفلانى — بجدة » ، دون أن يضاف وراء اسمه لقب وظيفته الرسمية • قلنا لعله من باب السهو والنسيان ، - وذهب فاذا به — لشدة خجله — يجد مقعده لا بين زملائه رجال السلك القنصلى ، بل بين أعيان البلد المحترمين • جلس وشرب الحساء ، ثم قام وانصرف •

سمعنا أنهم قالوا : « لعل الأكل لم يعجبه ، أو لعله أصيب بمغص مفاجئ » •

كنا اذا كتبنا لوزارة الخارجية السعودية مذكرة تتلقى ردها من وزارة الخارجية المصرية ، تقول لنا : بالاشارة الى مذكرتكم لوزارة الخارجية السعودية قد وصلنا ردها عليكم عن طريق الشيخ فوزان سابق (لاحظ الحرمان من اللقب الرسمى) وهو يفيد بكيك وكيت •• يعنى ، يا جحا ودلك منين !

وكذلك كان الحال مع الشيخ فوزان سابق بالقاهرة • اذا كتب لوزارة الخارجية المصرية مذكرة تسلم ردها من وزارة الخارجية السعودية !

ولم تكتف الحكومة السعودية بتجاهل مثل مصر لديها ، بل ألغت أيضا الامتيازات الجمركية التى كانت منوحة للتكية المصرية فى مكة والمدينة •• أذكر أتى ضربت كفا بكف يوم دفعت مائة جنيه للسماح بدخول دمجانة من الكحول النقى مطلوب لطبيب التكية الذى يعالج فقراء مكة بالمجان •

ولم يأت المحمل من مصر بالكسوة الشريفة خلال إقامتي
بجدة ، لا في سنة ١٩٢٩ ، ولا في سنة ١٩٣٠ ، ولكن « الصرة »
وحدها هي التي جاءت ، لأنها من أوقاف المسلمين الذين يتلون
في كتابهم الكريم « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع
عند بيتك المحرم » فوزعنا الصرة بالتعاون مع السلطات التي
لم تتجاهلنا هذه المرة •

ولكن ينبغى لى أن أشهد أن هذه القطيعة كانت قاصرة
على العلاقات الرسمية ، وبقيت علاقة الناس فيما بيننا مشبعة
بالود والاعزاز — لا فرق بين رجال الحكومة وأفراد الشعب •

(« المساء » ، ١٢/٩/١٩٦٦ ، ص ٦)

حفلة موسيقية « كتيمة »

وصفت لك أول مقامى سنة ١٩٢٩ بجدة ثغر الحجاز ، وبها
قبر أمنا حواء طواه عشرون مترا على الأقل . . لو كانت تلبس
لحرب بيت آدم ! كان العرى نعمة . . تعال الآن لتشهد معى أول
حفلة موسيقية حضرتها بجدة . ولكن ينبغى أن أخبرك أولا أن
الحكم الوهابى الجديد حينئذ (وكل غربال جديد وله تعلية)
كان يحرم الموسيقى تحريسا صارما . لا يسمح لفونوغراف
أو اسطوانة بدخول البلاد ، حتى (مزينة الفم) التى يلهو بها
الأطفال تصدر فى الجمر ، فما بالك بألات الطبل والزمر .
مرت على سنتان لم يقع فيهما بصرى قط على آلة موسيقية
ولو معطلة فى سوق الكانتو ، ولم أسمع عزفا من أى نوع كان .
أما الغناء فقد نجا من التحريم اذا كان غير مصحوب بعزف ،
وغير مستورد ، أى لا بد من التزام الغناء الحجازى ، وهو أشبه
شيء بالحداء .

حضرت حفلة عرس ذات يوم . جلسنا فى العراء أمام بيت

العريس (الدنيا حر ، درجة الحرارة ٤٥ ، ونسبة الرطوبة ٩٠٪
على الأقل) • على دكة قعد رجل معمم بشال أصفر مبرقش ،
ليس معه تخت ولا منيد حتى ولو بالزن كما كان العهد بسيدة
أم كلثوم في أول طلوعها بالقاهرة •• يا له من زن عائلي
محض !

انطلقت الدودة الوحيدة في الغناء ، أو قل الحذاء ،
والجميع جالسون في صمت عميق ، كأنما حط على رؤوسهم الطير
(لابد من هذه الاستعارة فنحن في بلاد العرب) وحين يحس
المنشد أنه أشبع سامعيه ، وأن صدورهم متلهفة على وقفه
تتيح لهم التعبير عن طربهم (لعله يحس هو أيضا أنه في حاجة
الى محطة يستريح عندها ويسترد أنفاسه ويخفف عرقه) تخير
مقطعا يقف عنده ينهيه بنغمة أعلى مقاما وأطول مدا • حينئذ
يدرك الجميع أن الاذن قد جاء منه اليهم بأن يعبروا عن طربهم ،
لا قبل ولا بعد • وقبل أن تنتهى نغمة المنشد تلتحم بها على
الطبقة العليا ذاتها نفثة مدوية كالهدير من مستمعيه تقول (الله)
في مد طويل ، ثم يعودون الى الصمت المطبق الى أن تأتى
المحطة التالية •

صدقنى ، تمنيت أن نقتبس هذا التقليد ليعطينا من
الصرخات الفجة التى تقاطع بها غناء أم كلثوم •
لم يرتفع صوت يقول (أعد) • حتى التصفيق بعد نهاية

الوصلة غير مألوف • قام اليه بعض المخبوطين وربتوا على كتفه ،
وبعضهم لثم يده ، هذا كل ما في الأمر • لم يطربني غناؤه بقدر
ما أطربتنى لهفة المستمعين حتى أننى شاركت فيها على خلاف
عادتى • كانت تنطق بأن حجرا ثقيلا أزيح عن الصدور • ان
الشعوب تتلهف للجمال •

صديقى حسين شاب حجازى ابن أصل ضخيم الجسم ،
لا عجب أن كان كبير القلب ، ولعل افراط جسده فى النمو جاء
على حساب نمو روحه فلا تزال به مسحة من سذاجة الأطفال •
أقبل على متهللا يبشرنى أنه أفلح هذا الصباح فى تهريب
اسطوانة مهمة جدا لعبد الوهاب ، هى قصيدة شوقى (يا جارة
الوادي) • لم تمتلئ الجزيرة العريضة كلها فى ذلك الوقت
كامتلائها) ب (يا جارة الوادي) • سارت بها النار فى الهشيم
(عدنا للاستعارة) ودعانى بالحاح أن أسعها عنده مع رفقة
من أصدقائه •

كانت الوسيلة المفضلة فى تهريب الاسطوانات هى وضعها
بين (ثوبين) فى طرد « المانيفاتورة » ، والنتيجة أن جميع
اسطوانات الحجاز كانت فى ذلك الوقت مقرطبة ، طارت منها
شطقة • لم يتمتع أحد قط بالاستماع الى أغنية من مطلعها •

الغرفة داخلية لا تطل على الشارع • هذا شرط مهم ،
مزدحممة بشبان متساندين بعضهم الى بعض ، كلهم بلحية

قصيرة مدية • الجو حار ، مختنق بالدخان ، ومع ذلك فالنوافذ محكمة العلق •

وفي الغرفة كنية عريقة (وهذا شرط مهم ثان) • وضع حسين الفونوغراف اليدوى تحت الكنية ، وجاء بفوطة كبيرة سد بها الفجوة التى يخرج منها الصوت ، ثم رقد على الأرض ، وجاء بالاسطوانة المشطوفة ، ثم غرز فى يد الفونوغراف ابرة رفيعة جدا - صنف يختص به الحجاز وحده دون سائر البلاد !

وظهرت على وجه حسين علامات هم شديد وهم يحكم وضع الابرة على الاسطوانة المشطوفة الدائرة • • لقد قصفت منها كلمات « يا جارة الوادى طربت » • • فيتوقف على حسن احكامه ان تبدأ الاسطوانة بـ « نى ما يشبه الأحلام » أو « • • دنى ما يشبه الأحلام » • هذا ما يمكن استخلاصه من كلمة « وعادنى » • حسين لا يريد أن يفلت منه حرف الدال بأى حال من الأحوال ، فهو يجرب مرة وأخرى حتى يصل اليه دون أن تصادف الابرة الطرف المشطوف •

هكذا استمعنا الى « يا جارة الوادى » • صوت عبد الوهات كأنه صوت الشيخ على الذى تزعم احدى نساء القاهرة أنه يكلم زبائنهما من تحت الأرض • • وهى التى تكلمهم من بطنها • انتهت الاسطوانة ، وصمم جارى أن يديرها بنفسه مرة

أخرى . هو شاب سوري يستوطن الحجاز ، يلبس جلابية
سكروته ، فوقها صديري سكروته ، فوقه جاكته سكروته ،
ورأسه معمم بشال أصفر مبرقش كشال عبد الوهاب الحجاز .
هو يجيد عزف العود ، وعوده مكسور وأصبح ترابا ، ويجيد
العزف على البيانو ، وهو مفكك موضوع في مخزن البضائع
في متجر أبيه . يود أن يشرب ، ولوضبط شاربا لحبس ستة
أشهر ، وكل شهر ستين جلدة على قارعة الطريق وعلى مرأى من
الناس جميعا . وهو فوق ذلك يجيد الغناء ، ولكن لا يستطيع
أن يغنى في غرفة مقفولة ، بدون عود ، بدون ويسكي ، بدون
حرية . .

أصر على أن يدير الفونوغراف بنفسه طوال الحفلة
الكتيمي ، يكاد يلتهمه ويأكله أكلا . وبين كل اسطوانة وأخرى
تنهيدة عميقة ، يتمتم بعدها بصوت حلو (باليل) أو (آه أنا
عشقت) أو مطلع دور عراقي ، ثم يسكت كأنما غاب عن
الوجود . ثم يستفيق ويعود الى الفونوغراف .

لم يكن مدعوا لهذا الاجتماع ، ولكنه سمع أصواتنا
فدخل على حياء الى البيت ، وهمس لى دون أن يسمعه بقية
جيرانه انه تردد على السلم ، هل يطلع أم ينزل ، نزاع بين أدبه
وطربه . اتصر الطرب على الأدب ، فدخل علينا ، ولكن الجميع
يعرفونه ، فقابلوه بفرح شديد .

هو ابن تاجر « مانيفاتورة » . أصبحت بعد ذلك لا أمر على دكانه الا وقت عنده ، وسلمت عليه . أراقبه جالسا القرفصاء يبيع لهذه وذاك ، في سوق قذر مقرف ، هواؤه ملئ بالذباب يضيق به أوسع الصدور وأشدّها حلما وبجحة . ومع ذلك فهو مبتسم ، ثم يميل على ويغنى لى هنسا مطم لحن ، أو يفتح دولابا صغيرا ويخرج منه ورقة بها نص دور جديد يحفظه على مهل .

أين أنت الآن أيها الفتى . . أتحت الثرى أم فوقه ؟ . . أتمنى أن يكون عمرك قد طال كعمري ، وأن أعود فأقابلك يوما لأرى هل الشيخ لا يزال يتمايل من الطرب ويتمتم بمطالم الأغاني كما عهدته فتى يجلس بجوارى في الحجرة الحبيسة في الحفلة الكتيمة . أتمنى أن تقع عينك على ما أكتبه الآن لتعلم أن صورتك بقيت في ذهني رغم مرور أربعين سنة .

وختام هذا المقال أن أصف لك الحفلة الغنائية الثانية والأخيرة الباقية عندي من سجل الحجاز ، لتعرف كيف يتحايل الطرب على كسر القيود وهدم السدود .

نحن في المدينة المنورة ، في بيت رجل ثرى . في البهو القسيح فسقية مرمرية تلتف الجوهى في قاع منور عال يستدرج تيارا من الهواء من أعلى العلالى (أتمنى أن أعيش في بيت مثله في القاهرة) . وحول الفسقية اصطفنا مع الغروب على الشلت

حول براد شاي ، للشرب منه مراسيم طويلة ، تغطية الأبريق
بفوطه ، صب مقدار ضئيل في كوب صغير لنذوقه فنعلم هل
نضج أم لم ينضج • الصبر عليه قليلا ، صبه من علو حتى
تشارك الأذن مع الأنف واللسان في لذته • كيف تمسك بالكوب
الصغير بين أصبعين ، كيف تأخذ منه أول شفقة • • كلها محددة
في كتاب شفوي مقدس •

وسبب اللمة هو الاستماع الى مطرب ، هو هذه المرة
رجل بدين يرعى ضفائر له طويلة ، لولا العقال الذهبي احسبته
زوجته لا هو •

أغناء في مدينة أظهر القبور ؟ ! ولكن مهلا مهلا ، اتنا لن
نستمع الا لتواشيح دينية ، وقصائد في مدح الرسول ،
فلا اثم علينا • ولكنى لاحظت بدهشة شيئا لم أعرف سببه في
مبدأ الأمر • المستمعون يزحلقون المنشد بسرعة لينتقل من دور
الى آخر ، ليحيى الوقت الذي يستطيعون فيه بلا خجل أن
يرجوه غناء قصيدة « أنا على دينك » •

زالت دهشتي حين تبينت أن أغنية « أنا على دينك » هي
نسخة طبق الأصل لحننا ونصا ولهجة عامية مصرية لأغنية

أم كلثوم التي كانت شائعة في ذلك الوقت ومطلعها « أنا على
كيفك » .. حينئذ اهتز جميع الحاضرين من شدة الطرب ،
وظفح البشر على الوجوه •

انظر كم كانت بارعة وساذجة معا حيلتهم في كسر القيود
وهدم السدود لينفذ الطرب إلى قلوبهم ولو من أضيق ثغرة •

(« النساء » ، ١٩٦٦/٩/١٩ ، ص ٦)

من جرایر الموسيقى

بعد أن وصفت لك في المقال السابق الحفلة الموسيقية
الكتيمى فعلت مبلغ كراهية المذهب الوهابى للموسيقى ، أتابع
ذكرىاتى عن الفترة التى عشتها فى جدة (سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠)
أميناً لمحفوظات قنصلية غير معترف بها (تقبى طلع عن شسونة)
لأن العلاقات الدبلوماسية بين مصر ومملكة نجد والحجاز
(لم تكن مودة الغناء اسم البلد التاريخى وتسميته باسم
الملك - كأنها عزبته - قد ظهرت بعد ، من قولة السعودية ،
الهاشمية - المتوكلية - ماركة عربية مسجلة مع الأسف) قد
قطعت قبل وصولى بأربع سنوات تقريبا .

لم يكن هذا القطع لخلاف فى السياسة ، أو لتضارب فى
المصالح ، وكلتاها فى منطقة النفوذ البريطانى - بل لسبب
لا يخطر بالبال . أتعرف ما هو ؟ انه هذه الفرقة العسكرية
الموسيقية (نحاسية ونواقيير) التى كانت تطلع من مصر مع
المحمل ، لتزفه فى الطريق ، ذهاباً وإياباً .

أنت لا تدري كم كانت فرحتنا أيام الطفولة بهذه الفرقة
الخيالى ، يوم أن نصطف (واليوم عطلة رسمية) على السلم
الرخامى لسبيل ام عباس فى الصليبة لنشاهد نزول المحمل من
القلعة ، حيث كانت تنسج على تؤدة خلال العام كسوة الكعبة
الشريفة ومقام سيدنا ابراهيم الخليل ، مطرزة بخيوط الذهب ،
موشاة بأجمل خط . لا يبدأ العيال نسيجها الا بعد الوضوء
وقراءة الفاتحة . الكسوة القديمة تباع فى مكة بالسنتيمتر ،
بأعلى الأثمان . وكان فى حينها أسرة عندها قطعة منها ، تتوارثها
جيلا بعد جيل ، يشحذها أهل الميت من الجيران لوضعها على
الخشبة من قبيل التبرك .

قلوبنا متعلقة بأربع متع ، عيوتنا متفتحة لتلتهما ، تكاد
تبظ . لو ضاعت منها فتقوتة لم تتم الفرقة . الأولى هى جمل
المحمل . انه جمل أبيض مهول ، يشف ويرف من شدة النظافة ،
وبره منفوش ، ضخم ولكنه رشيق . انه فى نظرنا لا يمشى بل
يتبختر كالغزال ، وندرك أنه هو مدرك لهذا العز كله ، وأنه به
فخور . يقال لنا انه لا يأكل الا للوز ولا يشرب الا ماء الورد ،
وانه اذا وصل الكعبة ومقام الرسول عليه الصلاة والسلام
ركع وتمرغ على الأرض من شدة الوجد ، وترقرقت الدموع فى
عينيه . فاذا عاد بالسلامة أعفى من العمل مهما كان تافها ، وعاش
مرفها فى التبات والنبات .

والمتعة الثانية هي تكحيل العين برؤية بهاء هذه الكوكبة
من الجياد العريضة الضامرة ، أغلبها أبيض كاللبن الحليب ،
فما أجمل اذن على هذا البياض لمعان عيونها السود الواسعة •
ان الحلاوة تقطر منها ، والكبرياء والطيبة معا • انها مثال مجسم
للنبل • فاذا كانت شقراء - أى ضاربة للحمرة - فما أجمل
غرتها البيضاء ، هي كالهلال ، وبقية من نوره قد لمست كعب
أحد الساقين من خلف • ليست هذه الزينة عن غفوة ، بل عن
عمد •

لا حيوان يبهج القلب مثل الجواد الجميل الأصيل ، عشقه
العرب عشقا مدلها ، وكانت اللغة العريضة وهي تتغافل الى
قلبي تحمل اليه أيضا حب الخيل • ولا أعرف لغة مثل الفصحى
اتبعت لأوصاف الخيل ، وصاغت لكل وصف لفظا •

تمر أمامنا وهي تتوثب ، وتلوى رقابها ، وتهمم بخياشيمها
كأنما لها احتجاج • وكنت مع ذلك ، لا أخفى عليك - فالصراحة
محمودة - أستريدي وراء ظهري خشية أن تقع عليها ندعة من
رذاذها ، فقد قيل لى بكلام أكيد ان (القوبة) ، وهي جنس من
بثور جلدية صلبة تنبت من بذرة رذاذ الحمير • وكنت أقول
لنفسى سرا : وربما من الخيل أيضا •

مازالت أذكر - صدقنى - كيف يلحظ قلبي وسط الفرح
هذا الفارق الواضح بين الجياد والقرسان • الجياد جميلة

كالعرائس المجلوة ، آثار العناية بها واضحة ، شبع ورى
وتطهيم ، والشبع من أكل محترم . أما الفرسان فكالعوسج
النابت من الأمية وطين الفلاحة وكروانة العدس وذل الفقر
والامتهان وضياع الواقعين من قعر القفة . يصدر منهم صهد
خشن وبواخ بعيد . تتلمظ على آكلة حلوة أو لقمة هنية ..
فلا نحس أننا تتجنى عليهم أو نهينهم ، ونحن نترنم سرا اذا
رأيناهم ، بأغنية كانت شائعة أيام طفولتى ، مطلعها : « ولبسوك
الزعطون يا محمد » .

والمتعة الثالثة أن نرى - من بين سائر الفرقة العسكرية
الموسيقية الخيالى - ضارب الطبلتين الصغيرتين الموضوعتين أمامه
على صهوة الجواد ، لأنه هو وحده الذى لا يمسك بلجام .
فنعجب كيف يتاح له أن يركب ويقود ويده طالعتان نازلتان
بالدق على الطبلتين . تؤكد لى ذاكرتى أن لجواده كسوة من
جلد النمر .

والمتعة الرابعة وهى تسام المتع أن نشنف آذاننا بسماع
مارش المحمل ، وكنا نحفظ أيضا مطلع نصه ، وهو يقول :
« يا محملنا روح وتعال بالسلامة » .

وبعد كوكبة الفرسان تأتى فرقة من المشاة . الجنود
يسرون فى انتظام والبنادق على الأكتاف ، يتصنعون الجد وفقا
للأوامر ، الا أن العيون تنطق بالفرح . لا يحدث تبادل نظرات

ود في موكب عسكري بين الجنود والجمهور كما كان يحدث في موكب المحمل • ومع ذلك لم يكن جو المرح بفالح في منع قلبي من الاهتزاز وعيني من رققة الدمع ، وأنا أحس أن هذا الجيش هو منعة الوطن • لم يتمثل لي الوطن في صورة واضحة ملموسة الا عند رؤيتي لاستعراض عسكري ، ولا يتغير هذا الاحساس اذا كان الاستعراض العسكري لجيش وطني أو غير وطني ، لأن فكرة في ذهني أسمى من الفوارق بين الأمم •

وأصبح هذا الاحساس يغلبني فيما بعد حين بدأنا نعرف استعراض مواكب الشباب (من فتیان وفتيات) في الحفلات الرياضية • هنا يضاف الى الوطن تطلع الأمل والمستقبل • الأساس واحد ، انه الاهتزاز للشعور بمنعة الوطن • والغريب أن الدموع كانت تظفر من عيني اذا شهدت استعراضا عسكريا من حماة بلدى حتى أيام كنت أهفو من كل قلبي أن يسود السلام بين جميع الأمم • • وقد حرمت من لذة هذا الهفوان منذ أن قامت اسرائيل • وتلك هي نكبتى •

هذه الفرقة العسكرية الموسيقية تصاحب المحمل لتزف له طول الطريق الى أن يبلغ غايته في مكة والمدينة المنورة ثم يعود • ولست أريد أن أكثر عليك في تاريخ المحمل المصرى منذ شجرة الدر • ستجده مشروحا أوفى شرح في كتب كثيرة ، ولكنى لا بد لى أن أذكر لك أن طلوع المحمل كان دائما بمثابة حملة عسكرية لحماية الحجاج من خطر الاغتيال والنهب والسلب على طول

الطريق • كانت تروى لنا ونحن أطفال حكايات عن مغامرات
الطريق يشيب لها الشعر • لا عجب أن كان أمير الحج يختار دائما
بين كبار الضباط ، ليتم على السلاح والذخيرة قبل التحرك •
تجد في « الجبرتي » وصفا منفصلا للاستعدادات العسكرية
لخروج المحمل • وكلمة « عرضي » التي تصادفك في هذا
الوصف وكنت لا أفهم معناها قبل سفرى لاستانبول وتعلمي
لغة أهلها هي كلمة تركية معناها الجيش •

وبعد أن وصفت لك الحفلة الموسيقية الكثيبي ، وكيف
أن (مزينة الفم) التي يلهو بها الأطفال كانت تصدر في
الجمرك بعد أن استولى الوهايون على الحجاز •• تصور كيف
يكون الحال حين تشق جموع الحجاج من غلاة الوهايين فرقة
موسيقية بأكملها ، تلعلع وتنفخ في الأبواق وتدق على الطبول •
وكاد أن يقع صدام مسلح بينهم وبين حملة المحمل المصري،
وخيف أن تنطلق النيران من الجانبين • ومرت لحظات رهبة
لا يعلم أحد ماذا كان سيحدث لو أن اصبعا هائجا ضغط على
زناد • وأرسل الملك ابنه سعود ففصل بين الجمعين •

فكانت هذه الحادثة هي السبب الظاهر في قطع العلاقات
الدبلوماسية بين البلدين ، أو قل بين الملكين •• وإن كانت هناك
أسباب أخرى أتركها إلى حين •• وكل هذا كما رأيت من
جراير الطبل والزمر •

(« النساء » ، ٢٦ / ٩ / ١٩٦٦ ، ص ٦)

هذا الشبل من ذاك الأسد . .

الصحفى الانجليزى فيلبى (هذه هى مهنته فى الظاهر والله أعلم بالواطن) • غطس فى بيروت وقب فى موسكو . . أصبح معروفا فى العالم أجمع بأنه « الرجل الثالث » ، لا لأن الصدفة شاعت أن يكون السابقون الى الهرب لموسكو بوحى منه هما اثنان (الدبلوماسى الانجليزى ماكلين وزميله) فصدق وصف فيلبى بأنه « الرجل الثالث » ثالث ثلاثة ، بل لأن هذا التعبير أصبح يدل لا فى اللغة الانجليزية وحدها ، بل عند الناس جميعا على الرجل الداهية ، المحاط بالغموض (ولا أقول بالضباب كالنقاد المحدثين عندنا موديل سنة ١٩٦٣) الذى يجب العمل فى خفاء ، ومن وراء ستار • والتفضل فى شيوع هذا التعبير يرجع الى القصصى الانجليزى البارع جراهام جرين (كلهم انجليز فى انجليز) لأنه هو الذى أطلق على بطل السيناريو الذى كتبه منذ سنين لفيلم « الرجل الثالث » ، وهو رجل أفاق كان يتجر سرا بالمخدرات فى أنقاض برلين بعد الحرب ، ولا يبالى من تكون ضحيته •

يا لقسوة السينما ، ويا لفرحة جراهام جرين وهو يرى
تعبيره يجرى على كل الألسن . ان الكاتب — لا عالم اللغة —
هو الذى يشرى كلام الناس ويلونه ، ويهبه ذوق العصر
ودلالته . حقا ان مثل هذا التعبير قد يبلى سريعا ، ويلقى في
سلة النسيان ، ويحل غيره محله ، ولكن قصر عمره لا يتفى طلاوته
وقوة نفوذه ولو الى حين ، شأنه في ذلك شأن الموضة ، أو شأن
أغنية خفيفة نسمعها فتؤخذ بها ونحبها ونراها جديدة كل الجدة ،
ثم نفتح العين ونغمضها فاذا هي قديسة قدم القبور المهجورة ،
مبتوتة الصلة بقلوبنا وأذواقنا . ونعجب كيف سحرتنا ذات
يوم ، ما هو الا الأمس القريب .

ولما علمت أن فيلبي الصحفى هو ابن سان جون فيلبي
أو الحاج عبد الله فيلبي قلت في سرى : هذا الشبل من ذاك
الأسد . (والعجب أن الابن هرب من بيروت ، وأن الأب مات
في أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ في بيروت) . هل تكون بيروت هي
المدينة الثالثة ؟

وقد عرفت الأب (نجم الأسرة ولارب) في ثغر جدة
سنة ١٩٢٩ حين نزلتها أعمل سكرتيرا لقنصليتنا هناك وأنا
في مقتبل الشباب . انه هو بعينه « الرجل الثالث » الذى رآه
جراهام جرين في أحلامه . هو الغموض والعمل من وراء ستار ،
هو حب المغامرة ، والترحيب بالمناكفة . صفات أورثها لابنه

ولاريب • كلا الرجلين أحب الشرق ووهبه قلبه ، وحاك له
دسائسه •

كان الأب يتقن من لغات الشرق اللغات الهندستانية
والأردية والعربية ، لا العربية الفصحى فحسب ، بل لهجات
قبائلها • فباللهجة النجدية كان يتحدث الى المرحوم الملك
عبد العزيز آل سعود ، وقت أن كان نديمه وأمين سره ، مع
أننى حضرت يوم الحج سنة ١٩٢٩ مجلس الملك فلم أفهم
عنه - أنا العربى المسلم - من قوله الا ثلثه ، وان قلت الثلث
فقد أكثرت ، مع أن أذنى كانت متعلقة بكل كلمة ينطق بها •

الأب والابن كلاهما خدما وزارة الخارجية جهرا ، ثم فضل
أن يخدمها سرا تحت قناع آخر • الظاهر أن حب الجاسوسية
يجرى فى دم الاثنين كليهما ، والطينة واحدة •• رضى فى سبيل
تحقيق مآربه أن يهجر زوجته •

كان لفيلبى الأب رأس كالزلطة لو خبطته فى جدار
لما أصيب بخدش وانهدم الجدار • لا عجب أن كان داخل هذا
الرأس ذاكرة كالحديد وعقل جبار لا يكل ولا يمل • وكان له
وجه محمر مقشور ما أظنه عرف الكسوف فى يوم ، ونظرة تنفذ
من الحديد ، ما أظنها انكسرت فى حياء مرة • وكانت له لحية
كثة بلون الحناء - لا تنس أنه من محاسيب المذهب الوهابى -
وما كان بحاجة الى أن يصبغها بلسون أزرق ، اذ كنت

لا أراه - ولا أدري لماذا - إلا في صورة الرجل ذى اللحية
الزرقاء • ولما زرته في بيته تأكد احساسى كما سترى فيما بعد •

من الانجليز من هو غاية البرود دون أن يتصف بثقل الدم،
ومنهم الأنيس اللطيف المعشر • أما فيلبى الأب فكان متجهم
الوجه ، وعر الجانب ، لو مسحت يد السماحة على وجهه
لعلقت بها جهامته • لم أره يتسم إلا قليلا • ولا أدري لماذا
أيضا أحسست أنه يعيش في عزلة دائمة ، وأنه ليس له
صديق • ولعل من شروط نجاح الجاسوس ألا يكون له
صديق بحق وحقيق •

جدة في الصيف جهنم وذباب ، ورطوبة وبعوض • هى
حمام تركى ، والهواء هو فوطة الحلاق الساخنة المبتلة التى
يضعها حول وجهك اذا كنت من زبائن صالون لوكس • طفح
حمو النيل على جلدى ، كل بثرة كراس الدبوس ، تتلذذ وتعذبني
بالهرش • غمام بصرى ، العرق لزج كالغراء ، يتصبب منك
وأنت ساكن في الظل لا تأتي بأقل حركة •

كنت لا أعرف أكتب إلا اذا وضعت تحت يدي ورقة
نشاف • خليج البحر الذى يمر أمام القنصلية مدلق من زقاق
داخل درب في البحار ، ماء عكر راقد لزج ، ليس هناك حد
فاصل بينه وبين الهواء الذى يعلوه • الود ودى أن لا أنضو
ثيابي وحدها ، بل جلدى أيضا • الملابس النظيفة لا يفترق عن

الملبس القذر ، ولم يكن في مسكني « دش » ، بل كنت أستحم
بالكوز من صفيحة في طشت غسيل .

وكنا ننفر اذا حل المساء من باب الكوشان في سور جدة
لننفذ الى الصحراء علنا نصطاد نسمة تائهة من الهواء ، ونمر
بقبر أمنا حواء ، وهو قبر طوله ٦٠ مترا على الأقل ، لا أدري
ماذا كان سيفعل سيدنا آدم اذا طلبت منه بدل ورق الشجر أن
يشترى لها قماشا . . لماذا كان لها دون سيدنا آدم قبر ؟
لم أجد عند أحد جوابا . الحقيقة أن المعرف في حجم القبر ضدني
كلما مررت به أن أقرأ الفاتحة سائلا المولى أن يغفر لها
ما فعلته بنا .

في البحث عن نسمة هواء كنا لا نتطلب من الحديث
الا أتفه وأخفه ، ومن الحركة الا أقلها . لو أعطى لي حينئذ
كتاب صغير مكتوب بخط كبير وقيل لي لو قرأته فستشرب علم
الدنيا والآخرة في جرعة واحدة لما وجدت في نفسي همة
لأفتح غلافه أو أرمي بنظرة الى عنوانه . الله الغني ، النفس
— لا الأدب وحده — مطلوب قبل العلم .

ثم نعود في الساعة الواحدة أو الثانية صباحا — يا لضيعة
الوقت في فاشوش — قاهر ، والفجر يقترب ، تحت بيت فيلبي
الأب فتتسمر قدماي . النور مضاء ، تكثكة التايرير في
سرعة القطار . انه يشتغل الى هذه الساعة المتأخرة من الليل

لم يخرج مثلنا لقتل الوقت ، الآن معدنه ليس معدتنا ، وهنته ليست كهمتنا . ان له هدفا يتلبسه ويلج عليه فينسى من أجله الحر الجهنمي والعرق اللزج وكل شكوى أخرى من شكاوانا السخيفة . هذا الهدف هو بناء صرح الامبراطورية ، ولا بأس من أن يقيم الى جانب هذا الصرح قصرا يسكنه فيلبى ذو اللحية الزرقاء ، وقصرا يسكنه فيلبى المستشرق ، وقصرا يسكنه فيلبى الرحالة جواب الصحراء الذى خبر فيها بنفسه كل كتيب وبئر ، وكل ذرة رمل وحجر ، كل حيوان يدب أو يمشى ، كل طيف من أطياف ألوانها البديعة ، الشروق والغروب ، كل دمدمة للجن فيها ، وكل دوى وصفير للريح . ولما زرته فى بيته وجدت فى حديقته داخل أقفاص أنواعا من حيوان الصحراء ، كالظبي والقنفذ والسحلية .. وهو داخل المدينة لا يستغنى عن الصحراء .

أعترف لك أنتى كنت أقف تحت نافذته وقتا طويلا — جاسوس أمام جاسوس ! — أتطلع الى الضوء وصوت التايريتير وأنا معجب بهمته أشد الإعجاب ، متحسر أشد التحسر ، لا على نفسى وحدها بل على كل أبناء المدارس أمثالى الفارقين فى الجهل والكسل والتراخى والتواكل .. وخليها على الله .. وكنت أتخيل بدافع من اشتياقى أنه يؤلف كتابا عن الصحراء ولا يكتب تقريرا للمخابرات .

وقد اشتريت كتابه الذى ألفه من اجتيازه لصحراء الربع

الخالى ، وأعترف لك أنى عجزت عن قراءته لأنه محشو بالفاظ
عديدة من علم طبقات الأرض ، فيه وصف لتركيب كل حجر وكل
صخر مر به ، فيه وصف مستفيض للألوان وذوق أطياها الدقيقة .
وأنا - مع الأسف - خريج القسم الأدبى ومدرسة الحقوق ،
لم ألق طوال السنين التى بقيتها فى المدارس كلمة واحدة تفتح
عينى على أسرار الأرض التى نعيش فوقها ، أو يصرنى بالألوان
وفروقاتها . جميع الألفاظ التى استخدمها فيلبى لا أستطيع أن
أترجمها إلا بكلمة واحدة هى حجر أو صخر . وقلت الكتاب
وأنا أتحرر مرة أخرى على نفسى وعلى جميع أبناء المدارس
أمثالى .

نحن العرب المسلمين لا نعلم شيئا عن الجزيرة العربية ،
والذى نقرأه فى الشعر الجاهلى نقرأه وعلوننا عمى ، ويجىء
رجل من بلاد الضباب ، لا لغتنا لغته ، ولا ديننا دينه ، فيجوب
هذه الجزيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، لا يبالى بالأحوال
والأخطار ، ثم يسجل كل ما يراه ، وينشره للناس ، وهو عالم أن
الذين سيقراون كتابه من المتكلمين بالعربية قلة تعد على أصابع
اليدين ، والذين سيفهمون منهم ما يقرأون قلة تعد على أصابع
اليدين الواحدة .

بسبب فيلبى كانت جدة عندي حرا جهنما وذبابا ورطوبة
وبعضا . . وتحسرا لا ينقطع .

(« المساء » ، ١٢/٨/١٩٦٣ ، ص ٨)

مناكفات . . وصفائر

أتابع ذكرياتي عن سائت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى الذى جدد ابنه الصحفى - الرجل الثالث - بهروبه أخيرا من بيروت الى موسكو تقاليد الأسرة فى الارتباط بالشرق العربى وحب المغامرة والمناكفة والعمل من وراء ستار .

وقد حدثتك من قبل عن لقائى بالأب فى جدة سنة ١٩٢٩ ، ووصفت لك هياته ولحيته الوهايية وبلعه بسهولة - وهو الغرب القادم من بلاد الزمهير - لجو جدة الحار الرطب الذى يقف فى حلقنا - نحن أبناء زمته النيل - فيكاد يخنقنا . وكيف كان يحتمل وحدته بعيدا عن الزوج والولد كأنها خف الريشة وهى عندنا أطنان من حديد ، من أجل أن يفرغ دوتنا ، وهو فرح منطلق ، الى غرض كالسهم ، لدراسة بلادنا التى نجهلها فى الجزيرة العربية ، والامام المام خير بأحوال أهلها ، خدمة للامبراطورية البريطانية ، واعلاء من شأن الاستشراق فى أمت .

كانت شهرته أنه مستشار أو صديق للملك المرحوم عبد العزيز آل سعود ، ونو أننى لم أسمع خلال اقامتى سنتين بالحجاز عن لقاء معلن بينه وبين الملك . ولا أظن أنه كان يقابله سرا . والغالب أن شهر العسل بين الاثنين كان قد انقضى . كان لفيلبى دوره وتفعه وقت أن كان عبد العزيز آل سعود فى غياهب نجد ، يحتاج أن يكون بجانبه رجل انجليزى يستخدمه فى اتصالاته — ذهابا وإيابا — مع الحكومة الانجليزية ، فيدرك الأمير بفطنته من أين تهب الريح ، والى أى مدى يجوز له أن يمد قدمه ، وان لم يفصح له فيلبى عن الحقيقة كلها .

ثم أصبح الأمير ملكا على نجد والحجاز ، وأطل عرشه على البحر ، واستتب سلطانه ، فأصبح الاتصال بينه وبين انجلترا عن طريق ممثل معتمد لانجلترا يقيم فى جدة ، وعن طريق الشيخ حافظ وهبة مندوب الملك فى لندن . والشيخ حافظ وهبة من أبناء مصر ، وقد نشر ترجمة حياته قريبا — ولا أنسى الى اليوم لقاءنا أول مرة على ظهر الباخرة تالورى التى حملتنا نحن الاثنين الى جدة فى مطلع سنة ١٩٢٩ .

فأصبح يصدق على فيلبى وصفه بأنه « محارب » من المرتزقة ، وهذا الصنف من المحاربين ينظر اليه الجندى المحترف بنوع من الاستخفاف والازدراء ، فكانت القنصلية الانجليزية فى جدة تتجاهل فيلبى ، وكان فيلبى يتجاهلها ، بل يعمل أحيانا

على مناكفتها - كما ستري - كل هذا في الظاهر ، فلم يكن ينطلى على أحد زعم الجانبين أنهما في مباراة لشد الجبل ، كل منهما يجذبه لناعيته ، بل كنا نحس أن الجانبين رغم اختلافهما الظاهر يشدان الجبل معا الى ناحية واحدة هي لندن ، بل كنا نحس أن التجاهل المتبادل بينهما خطة ، ان لم تكن موضوعة عن عمد ، فهي وضع براجماتيقى نافع لا بأس من تدعيمه والابقاء عليه . ففيه تبيض لوجه فيلبي عند أهل البلاد ورفع لسوء الظن به ، فلعلهم يأمنون له ويفتحون له قلوبهم ويعتبرونه واحدا منهم لا واحدا عليهم .

انظر كيف كان فيلبي يناكف القنصلية الانجليزية .

تسلمنا في قنصليتنا ذات يوم نسخة من كتاب دورى موزع على جميع القنصليات تقترح فيه القنصلية الانجليزية علينا انشاء ناد يضمنا جميعا ويكون وقفا علينا . لعل قنصل انجلترا كان يفتقد ناديه في لندن ، يدخل فيجد منضدة عليها كوم من الصحف ، ومقعدا في ركن يدخل فوقه بيته . ان شاء جلس صامتا لا يضايقه أحد ، وان شاء قام الى من أحب ليبادل حديثا خفيفا ، أو ربما استهوته فكرة ربط موظفى القنصليات برباط الأسرة الواحدة ، تخفيفا من وحدتهم في جدة .

وأعترف لك بلا خجل أننا تلقينا هذا الكتاب الدورى بفرح شديد و تمنينا أن تتحقق الفكرة ، وحمدنا في سرنا للقنصل

الانجليزى أنه لم يشأ أن يجعل هذا النادي وقفا على القنصليات
الأوربية (فرنسا • ايطاليا • هولندا) وأنه تكرم وتنازل وشمل
بعطفه قنصليتى تركيا ومصر • (لم يكن لبلد اسلامى آخر ممثل
فى جدة ، اللهم الا ايران ، فقد كان لها قنصل فخرى من أهل
البلاد ، من أذكى أهل البلاد • بفضلہ عرفت لأول مرة شيئاً عن
البهائية وتاريخها ومدى انتشارها) •

وكنا نحس فى ورود هذا المنشور أن السلك القنصلى
ينقسم الى معسكرين : معسكر أوروبى ومعسكر شرقى • الأول
يستعلى على الثانى وينظر اليه بشيء من الاستخفاف • وقد
غضبنا فى سرنا ذات يوم حين دعانا قنصل هولندا لتناول الغداء
على مائدته ، فوجدناه لم يدع معنا الا قنصل ايران الفخرى ،
كأنه لم يجدنا أهلاً لأن نجلس على مائدته مع ضيوف من
الأوربيين •

فرحنا بالكتاب الدورى ، ولم يبق لنا من هم الا أن نسأل :
ترى كم تبلغ قيمة الاشتراك فى هذا النادي •

وبعد يوم واحد زارنا فيلبى وهو محقق هائج ، وقدم لنا
صورة من كتاب دورى وزعه هو الآخر على جميع القنصليات ،
يحذرنا فيه من جعل هذا النادي وقفا على السلك القنصلى
وحده ، ويطالب بشدة أن يفتح أبوابه أيضا لأهل البلاد ، لأهل
الحجاز ونجد ، لأننا نقيم فى بلادهم ولا معنى لأن نعلق باب
هذا النادي فى وجوههم • انه يكره هذا الاستعلاء البغيض •

سبحان الله ! لم يجيء الدفاع عن أهل البلاد من مثل مصر
أو تركيا أو إيران ، بل من سانت جو فيلبى ، أو الحاج
عبد الله فيلبى . هل غاظ فيلبى أنه لن يدخل هذا النادي
لأنه ليس موظفا بإحدى القنصليات فقال : فيها لاختمها ؟

لا أدري .. على كل حال أعترف مرة بلا خجل أنني شعرت
بشيء من الحقارة والامتهان لنفسي لأتتى خلقتنى الصغائر ،
فسارعت الى الفرح بفكرة هذه النادى دون أن أتبه - كما
أتبه فيلبى - الى المعنى الذى قذف به فى وجوهنا .
وهكذا حين أراد قنصل انجلترا أن يفتح علبة النادى قفز
له من داخلها غفريت اسمه فيلبى .. فأغلقها ورماها ، وقال :
توبة من دى التوبة .

ولم تقتصر مناقفة فيلبى على الحجاز ، بل امتدت الى مصر
حين عبر لأوروبا ذات مرة . طلب اليه فى السويس أن يدفع رسما
مستحقا لإدارة الكورتيينات ، فرفض الدفع ، وقال ان هذا
الرسم ضريبة تجبى فى مصر ، فأرونى أولا القانون المصرى
الذى فرضها .

والواقع لم يكن هناك قانون مصرى يفرض هذه
الضريبة - اذ كانت ادارة الكورتيينات منظمة دولية ، هى فى
مصر - كقناة السويس - حكومة داخل حكومة . وكان الغرض
منها فرض حصار على جماعة الحجاج الى مكة ، لا يقل عن
حصار المرضى بالطاعون والكوليرا .

وقد دفعتني مناكفة فيلبى للكورتينات على أن أدرس
أنظمتها وأضع عنها بحثا طويلا نشرته في مجلة « الرابطة الشرقية »
حملت فيه على نظام يسمح بمرور الأوربي المقيم في جدة دون
حجزه في الحجر الصحي ، أما اذا كان المسافر مسلما ، فسواء
أحج أم لم يحج ، وربما كان جارا ملاصقا لهذا الأوربي ،
فلا يسمح له بالعبور من قناة السويس الا بعد قضاء فترة من
الحجر الصحي في الطور . . كانت القاعدة عند الكورتينات أن
كل أوربي نظيف ، وكل مسلم قذر موبوء .

وكنت أرى بعيني وأنا صبي جماعة الحجاج القادمين من
الغرب المنكسرين والغلبة ، وهم يساقون كالأنعام ، وقد أحاط
بهم حرس من البوليس والكورتينات . كأنهم مباءة أمراض
فظيعة . . يحدث لهم هذا وهم في طريقهم الى الحجاز ، فتصور
حالهم عند العودة منه .

ونعود الى فيلبى فنقول : ومع هذا فقد كان هناك في
الحقيقة خلاف شديد بينه وبين القنصلية الانجليزية يتمثل فيه
خلاف عجيب متوارث في الدبلوماسية الانجليزية في الشرق بين
طاقم الحكومة الهندية ، وطاقم المكتب العربي في المخابرات
البريطانية — كما سأرويه لك في المقال التالي .

بين الروبية وريال تيريزة !

قابلت الروبية أول مرة وأنا صبي بالمدرسة الابتدائية وقت أن وفد على بلدنا في مطالع الحرب العالمية الأولى حشد من الجنود الهنود بين ملتج وحليق ، فوقر في نفسي أن عقلية الهنود من العقد الشائكة ، فلم أفهم حينئذ لماذا أرادوا للروبية أن لا تساوي الا ستة قروش ونصف قرش مصرى • ودعوت الله ألا يخطر على بال هذا الطاغية الذى يعلمنا الحساب — بالضرب ! — حتى لا يدخلها في مسائل « رجل باع واشترى » •

وقابلت ريال ماري تيريزة أول مرة وأنا فتى أعمل في قنصليتنا بجدة سنة ١٩٢٩ • حقا انه ريال متميز على وزن مبعجر ، ضخيم كأنه الرحي • هو النقد المفضل حينئذ لدى جميع سكان الجزيرة العربية ، وهو ليس عملة رسمية تنفرد الحكومة بسكها وتعاقب على تقليدها ، بل هو عملة حرة • قيمتها هي قيمة الفضة التى تحتويها • فيستطيع كل صيرفى أن يسكها أينما شاء ثم يحملها للحجاز ونجد للتعامل بها • لا مثيل

لها في أي بلد آخر • فلا يعرف ريال ماري تيريزة الفرق بين
جواني وبراني • (بعد استمساح الدكتور عثمان أمين !) •

وكما لخفتني الروية في الحساب لخفتني هذا الريال ،
اذ كان ثمنه حينئذ ٢٣ قرشا مصريا • • سمي بذلك لأن على أحد
وجهيه صورة ماري تيريزة النمساوية امبراطورة ألمانيا وملكة
المجر وبوهيميا (١٧١٧ - ١٧٨٠) • ولم أعرف حتى اليوم
سر تداول هذه العملة في الجزيرة العربية وحدها بعد أن بطل
تداولها في النمسا ذاتها منذ أجيال بعيدة • وكان هذا الريال
العجيب كافيا للدلالة بمفرده على هبوط مستوى المعيشة عند
متداوليه ، فلو ملك واحد منهم ألف ريال لاحتاج الى
جميلين لحملها •

هذه المقدمة النقدية لا بد منها لأنها خير ما يعكس انقسام
السياسة البريطانية في الشرق حينئذ الى منطقتين : منطقة الروية
(الهند والبلاد العربية الواقعة على الخليج • وقد يدخل فيها
العراق أيضا) ، ومنطقة ريال ماري تيريزة (بقية بلاد الصحارى
في الجزيرة العربية) ، فكان لكل منطقة رجالها المتخصصون •
لكل من الفريقين عقليته ومزاجه • فريق الروية أوثق صلة
بالجيش • يهيم بالاستعراضات العسكرية • يتجمع حول نائب
ملك يحكم الهند كامبراطور منفوخ • يصف الرايات أمامه
وتحتة ، وقد زينوا بالجلى أيديهم وأرجلهم وآذانهم ، كأنهم

مسوخ في سيرك • رجال هذا الفريق عمليون ، حلولهم جذرية ، متصفة بالاستعلاء • لا أحلام لهم • همهم الأوحاد الاغتناء وجمع المال للعودة الى بلادهم بعد التقاعد ليعيشوا مع أمراضهم معيشة الأثرياء • الفروق بين الأجناس عندهم محددة بالحبر الأحمر ، لون العلم البريطاني ، والانجليزى سيد السمر والسود علنا ، والبيض أيضا في قرارة نفسه • الخيرة السياسية المطلوبة منهم هي التلاعب بالفروق بين المذاهب والأديان •

أما فريق ريال مارى تيريزة فأمره عجيب • شبان أذكىاء يتخرجون في أرقى الجامعات ، اللغة اللاتينية والاعريقية حشو جمعتهم الثقافية • ولسبب خفى يهيمون بالشرق فيداعب أحلامهم • هو عندهم بلاد السحر ، فيترجمون كلمة السحر بكلمة السياسة ويتطوعون لخدمة الامبراطورية البريطانية في البلاد العربية • في أذهانهم أحلام عن دسائس ومؤامرات ومغامرات كأنها قصة بوليسية • رحلات سرية عبر الصحراء على ظهور الجمال • أخطار بالليل • فيهم من يأفل نجمه أو تنتهى حياته بعد الخطوات الأولى ، فلا يبقى له ذكر • ومنهم من يبنى له في نظر قومه مجدا لا يقل عن أمجاد أبطال الأساطير ، كما حدث للورانس •

ليس بين فريق الروبية من يلبس زى الهنود • أما رجال فريق ريال مارى تيريزة فيهمون بلبس العقال • ربما أيضا اعتنق

بعضهم الاسلام ولو في الظاهر كما حدث اسانت جون فيلبى
أو الحاج عبد الله فيلبى ، ولو أنه في حقيقة الأمر من فريق
الروية رغم نشاطه في نجد والحجاز •

هذا الفريق لا يتظاهر بالاستعلاء ، بل يتصنع الوقوف
وقفة رجال الحاشية من الأمير العربى الذى يدخل في مصيدته •
رسائلهم المتبادلة بينهم مملوءة بمقتبسات من الأدب الاغريقى
واللاتينى ، مكتوبة برشاقة وأجمل أسلوب •

وأحب أن تعرف أن اللورد كرومر كان له أسلوب أدبى
ممتاز ، يمثل العصر الفيكتورى • تقرأه اليوم مثلاً في كتابه عن
عباس الثانى فتعجب بشدة أناقته ولكنك تحس أنه أسلوب
أكل عليه الدهر وشرب •

هذا هو فريق مخبرات المكتب العربى الذى بسط نفوذه
على البلاد العربية ، وبلغ ذروته ابان الحرب العالمية الأولى
وأعقابها • فريق لورنس ، وروناالدسفورز ، وكلايتون ، وشكسبير
(هكذا كان اسمه) • كان كل واحد منهم في حقيقة الأمر ملكاً
متوجاً ، ولكنهم بنوا عن عمد شهرة لورنس ، ليكون نجمهم
المتألق ، الذى يجسد ذكرى زعيمة هذا الفريق — اللادى
ستافوب — التى كانت تعيش معيشة الملكات في جنوب ولاية
سوريا في أواخر الامبراطورية العثمانية •

وقد بلغ من مجد هذا الفريق في نظر الانجليز أن مستر
تشرشل نفسه كان يجب دائما أن يزج بنفسه بينهم .. ولم لا ؟
الله أيضا صاحب أسلوب زخرفي ، يعشق الأناقة •

ولم تكن الخبرة المطلوبة من هذا الفريق هي التلاعب
بالفروق بين الأديان والمذاهب كما هو الحال في فريق الرواية ،
بل كانت تتمثل في القدرة على إثارة الأطماع والحزازات بين أمراء
الجزيرة العربية • لذلك كان المطلوب منهم أن يدرسوا طبائع
الانسان ومكامن ضعفه ، ومن هنا كانت صلتهم الوثيقة بالأدب
والتعبير الفني •

ويخيل الى أحيانا أن النزعة المسيحية تكمن وراء هيامهم
بالشرق ، ففي الكتب التي قرأوها وهم صبية عن حياة السيد
المسيح والقديسين صور لرجال في زي البدو • وفي الجزيرة
العربية ولد السيد المسيح ، وهاجر وجاهد ، ولقى ربه • • أسماء
مثل الناصرة وبيت لحم والجلجثة متغلغلة في قلوبهم ، توحى
لهم بشعور مختلط بالحب والرغبة والتعجب • فليس من الغريب
قولهم ان سر جاذبية الملك فيصل الأول كانت ترجع الى أنه
شديد الشبه بالسيد المسيح كما يبدو في لوحات المصورين •

ولكن اياك أن تنسى أن المجد الذي بناه هذا الفريق في نظر
شعبه لم يكن راجعا الى كفاءة فردية ممتازة فحسب ، بل لأن

وراءه هيبه الامبراطورية البريطانية و ثراءها وقوتها وأسطولها .
وكتبته صحيفة « المقطم » - صحيفة الاحتلال - توهم قراءها
أن وصف بريطانيا بالعظمى هو دلالة على عظمتها ، وأنها لا تقهر ،
مع أن هذا الوصف هو في الحقيقة وصف جغرافي يراد به تمييز
الجزر البريطانية من مقاطعة بريطانيا الفرنسية ، فالجزر
البريطانية أكبر ولذلك سميت بريطانيا الأكبر ، لا العظمى ،
فهذه هي الترجمة الصادقة لكلمة « جراند بريتاني » أو « جريت
بريتان » .

فلم يكن يخلو متاع واحد من فريق المكتب العربي
الانجليزى من صفائح بنزين مملوءة بالذهب أو بريال
مارى تيريزه ، ليوزعها يمينا وشمالا . حقا ان بعض الذهب كان
فى بعض الأحيان مغشوشا ، فالسياسة البريطانية لا تتورع عن
التزييف ، بل عن القتل أحيانا . فالمستر بالمر الذى رشا بدو
صحراء سيناء ، تمهيدا لحرب عرابى لم يوزع عليهم الا جنيهات
زائفة ، وان كان لوها لون الذهب .

ان أردت أن تعرف مثلا للدور الذى لعبته الجنيهاات
الانجليزية فى بناء مجد هذا الفريق فاقرأ خطابات المرحوم الملك
حسين الى المستر ماكماهون . . ثلاث أو أربع صفحات مكتوبة
بأسلوب عرقوبى لا تفهم أوله من آخره ، ولكن كل رسالة تنتهى
بسطر واضح كل الوضوح ، التعبير فيه مباشر بلا لف
ولا دوران . . اسعفونا بالفلوس . . فالذى وصله لا يكفى .

وان قرأت وصف خروج الملك حسين من بلاده أمام الغزو الوهابي رأيت بقية هذه الفلوس لاتزال موضوعة في صفائح بنزين أخذت طريقها الى قبرص . دبر الانجليز خلعهم بالغزو الوهابي ، لطى صفحة وعودهم الكاذبة له باستقلال الجزيرة العربية تحت امارته . ولكن هل تظن أنهم أعطوا الحجاز لقمة سائغة للملك ابن سعود . كلا ، ان الملك على وقع على ظهر السفينة التي أقلته هو أيضا خارج بلاده على معاهدة يتنازل فيها الحجاز لشرق الأردن عن ميناء العقبة . مثل هذه الخططات السياسية هي دعائم مجد فريق المكتب العربي الانجليزى .

لم يكن المسال وراء هذا الفريق فحسب ، بل كان هناك أيضا الأسطول البريطانى (قبل اختراع الطائرات والقاء القنابل الحارقة على القبائل الثائرة) ، وكان يحق لانجلترا حينئذ أن تسمى البحر الأبيض « بحرنا » ، وكثرت فيه بعض بوارجها الكبيرة . انه أصبح بحيرة انجليزية بعد احتلالها لجبل طارق ومالطة وقبرص وقناة السويس . أما البحر الأحمر الغلبان فهو في نظرها طست نحاس ، هو بحر عربى ، بدليل أن شكله شكل جلاية بكمين منشورين على جبل بعد غسلها « فمين » فى هذا الطست النحاس . لذلك لم ترسل له الا بارجة صغيرة زعراء ، كأنها لعبة طفل تجر بحبل فى هذا الطست . كان يكفى أن تظهر هذه البارجة أمام أى ثغر عربى حتى يتحقق لرجال المكتب العربى تنفيذ سياستهم بلا حاجة الى فرط ذكاء أو احكام

الدسائس • وأعتقد أن مدافع هذه البارجة لم تطلق مرة واحدة •
ولولا تعليمات البحرية البريطانية واشغال البحارة أوقات فراغهم
في تلميع الأحذية والمدافع لكان الصمد قد علا سلاحها
الأخرس •

من حسن حظي أن مشهد هذه البارجة لم يفتني ، فقد
رأيتها راسية أمام جدة ذات يوم أثناء اقامتي بها • • ويجزني
أنى نسيت اليوم اسمها •

وكان الانجليز يزعمون أن سياستهم في الشرق هي سياسة
يد من حديد داخل قفاز من حرير ، والواقع أن القفاز كان من
الحديد أيضا • هو أحيانا حديد خردة تصنع منه مثل هذه
البارجة الهزيلة •

كل هذا المجد طواه الزمن الى غير رجعة • انتهت الهالة
التي كانت تحيط برأس لورنس وأتباعه • ولكنها كانت لا تزال
تتألق وقت اقامتي بجدة سنة ١٩٢٩ • كان طاقم القنصلية
الانجليزية في جدة يأتهم بمدرسة لورنس ، منطقة ريال
ماري تيريز • لذلك لم يكن من العجب أن ينظروا نظرة متعالية
الى سانت جون فيلبي ، أو الحاج عبد الله فيلبي ، لأنه في الأصل
من منطقة الروبية - كما سأحدثك في المقال التالي •

(« المساء » ، ١٩٦٢/٩/٢ ، ص ٨)

دروس وذكريات

من حسن حظى أثنى تلقيت وأنا لا أزال غشيمًا في الكار
من رجال القنصلية الانجليزية في جدة - وكلهم من خريجي
كامبردج أو أكسفورد - حين نزلتها سنة ١٩٢٩ • درسا تفنى
طوال مدة خدمتي المديدة بوزارة الخارجية • انه درس لا تجده
في الكتب • ولم ينبهني اليه أحد من رؤسائي قبل سفري من
مصر • ولكنه على ضآلته شديد النفع لأنه كشف من نفختي
وغلوائى واعتزازى بالحصانة الدبلوماسية التى تمنح لرجال
السلك الدبلوماسى • المسافرون من بقية خلق الله تبعثر حقائبهم
فى الجمارك ونحن نمرق مروق السهم بين التحيات والابتسامات •
أشياء كثيرة ممنوع استيرادها ، أو اذا سمح باستيرادها بيعت
بأثمان مرتفعة للأهالى (مثل السجائر والخمور والأقمشة
الفاخرة) أما نحن فنشتريها رغم كل القيود بأبخس الأثمان ،
بل من عجب أن شركات السيارات تمنح رجال السلك الدبلوماسى
تخفيضًا لا يفوز به أحد غيرهم ، بل يبلغ الأمر أنه اذا دهست

هذه السيارة انسانا فان صاحبها لا يقدم للمحاكمة ، بل غاية ما يحدث له أن يعاد لبلده . بأمر من دولته ، وقد شهدت فيما بعد حكومات كثيرة تغمض عينيها على تعامل رجال السلك الدبلوماسي في السوق السوداء وهو جريمة يعاقب عليها قانونا . حقا انه اغراء شديد لضعفاء النفوس ، المنفوخين نفخة كذابة من رجال السلك الدبلوماسي ليروا أنفسهم فوق القانون وأن يباح لهم الاستخفاف به . . وكان من قوانين الحكومة السعودية حينئذ تحريم تدخين السجائر في الطريق العام ، وحق رجال « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » سوق السائرين غصبا الى المساجد اذا نودى للصلاة فكان أول أثر لهذين القانونين على نفسي أنني ثرت عليهما . وتمسكت بحق التمتع بحصاتي الدبلوماسية ، ولكني رأيت رجال القنصلية الانجليزية يحرصون على القاء سجائرهم الى الأرض قبل خروجهم من باب القنصلية ، ولو خرجوا بها ونفخوا الدخان في وجوه الناس لما تعرض لهم أحد ، ولكنهم لا يرضون المجاهرة بخرق القانون . ورأيت أغلبهم يطلقون اللحي اتباعا منهم لسنة أهل البلاد . ولكن خضوعهم لهذه السنة هو من قبيل الدلع أيضا لا الاحترام وحده . يحون أن يضحكوا وهم يرون أنفسهم في المرآة ، وأن تثير صورهم الفوتوغرافية ابتسامات أقاربهم البعيدين . . وكان من مزاجهم اذا سأل أحدهم

سائل — كم لك في جدة ؟ أجاب — ثلاث لحي .. بدلا من قوله
ثلاث سنين مثلا .

تعلمت أن الحصانة الدبلوماسية لا تعنى الاستخفاف
بالقانون المحلى . بل تعنى أن يكون الممثل الدبلوماسى أشد
الناس حرصا على احترامه . فبقدر الحقوق تكون الواجبات .

أما مع سانت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى فكنت
إذا قارنته برجال القنصلية الانجليزية — مع أنه مثلهم من خريجي
كمبردج — أجده مثالا غريبا للجرأة التى تبلغ حد البجاجة ،
ان نظرتة لا تنكسر .. ولسانه حاد قاطع . أقمنا حفلة لتوديع
رئيسنا وهو من خريجي أكسفورد . فاذا بفيلبى يقول له أمام
الجميع . ليس فيك علامة واحدة تدل على أنك درست فى جامعة
انجليزية ، كذلك كان شأنه فى بيته .. مخلوع العذار لا يخشى
النقد ، مجاهرا بما يخفيه غيره ، وكانت مهنته الظاهرة حينئذ
اشتغاله بالاستيراد . وقد زرت معه شركته وأطلعنى على الآلات
الميكانيكية التى تتركب على الآبار العميقة لجرمياها ، وكانت
عبارة عن سلسلة متصلة إذا تحركت من أسفل الى أعلى نزحت
معه الماء من عمق البئر الى سطحه . وكنا نعلم أن الملك
عبد العزيز آل سعود يفكر فى تنفيذ مشروع يقضى باسكان
البدو فى مناطق قابلة للزراعة لينشئ فى الحجاز مجتمعا زراعيا
مستقرا يتحرر من الغزوات والهجمات المتبادلة بين قبائل البدو .

ولاشك أن الحاج عبد الله فيلبى كان من أكبر المروجين لهذا المشروع .. كانت المشكلة في الحجاز هي مشكلة الماء . نحن في جدة نشرب اما ماء لا طعم له . تقطره لنا الكنداسة ، وتباع الصفيحة الواحدة بقرشين وثلاثة ، واما ماء عكرا مستخرجا من الصهاريج الأرضية التي تحفر في طريق السيل المنحدر من الجبل الى البحر . وكانت ثروة بعض الأغنياء تقاس بعدد ما يملكون من هذه الصهاريج .

لم يكن عصر البترول قد أشرق بعد ، ومع ذلك فمن عجائب الحوادث في حياتي أتت شهادتي مبادئ أول محاولة سرية للكشف عن البترول في المملكة السعودية ، ففي الباخرة تالوري التي أقلتني الى جدة في مطلع سنة ١٩٢٩ لقيت رجلا هولنديا ليس من اليسير على من يراه أول مرة أن ينسأه بعد ذلك ، له وجه شديد الاحمرار ، مستدير كأنه مرسوم بالبراجل ، وعلى عينيه نظارة غامقة هيبات أن تخفى خبث نظراته . انه فاحش الثراء ، ويقيم في جدة . وقد أشهر اسلامه ، وتزوج من سيده فاضلة من أهل جدة ، فاذا به يأخذني على جنب ونحن لم نتعارف بعد معرفة وثيقة ويطلب مني سرا أن أضع جهازا له بين أمتعتي ليخرج من الجمرك السعودي بدون رقابة . وقال لي انه جهاز معد للكشف عن البترول . وان ادخاله للبسلاد غير محرم ولكنه يخشى أن يعثر به رجال الجمرك فيفسدوه . وقد وقعت فجأة في حيص بيص ، وحررت ماذا أفعل ، وكان خليقا بشاب

غر مثلى أن يستجيب لهذا الرحالة ، ولكنى لحسن الحظ أنفت
أن يستغلنى هذا الرجل مثل هذا الاستغلال السخيف ،
فرفضت طلبه •

وهكذا أستطيع أن أشهد أن الكشف عن البترول فى
السعودية بدأ سرا فى سنة ١٩٢٩ أو قبلها بقليل •

ونعود الآن الى الحاج عبد الله فيلبى لأختم بسرد سيرته
حديثى عنه الذى طال أكثر مما ينبغى •

ولد فيلبى فى جزيرة سيلان سنة ١٨٨٥ أى بعد أن وصلها
عراى باشا بثلاث سنوات • وهكذا شاء له القدر أن يولد
فى مستعمرة يحكمها التاج البريطانى ، وينهى اليها كل من ثار
ضد الامبراطورية • فرضع مع لبن مرضعته حبه وهيامه بهذه
الامبراطورية وشاء له القدر أيضا أنه يكون دائما غريبا غير
متألف مع الانجليز المولودين فى انجلترا • • ولما بلغ الثامنة
من عمره سافر لانجلترا للالتحاق بالمدارس ثم تخرج فى جامعة
كمبردج • وبعد أن نجح فى امتحان دخول وظائف الحكومة عين
فى احدى الوظائف الادارية بمقاطعة كشمير بالهند فأتقن تعلم
اللغة الهندستانية والعربية • ولما اندلعت الحرب العالمية
الأولى ظل بالهند الى سنة ١٩١٧ حين أوفدته حكومته الى
الكويت ليكون حلقة الوصل بينها وبين الأمير عبد العزيز آل
سعود وهو يرقى سلم المجد خطوة خطوة • وهكذا نشأت بينهما

تلك الصداقة والعلاقة المتينة التي استمرت الى وفاة الأمير وهو ملك على نجد والحجاز والعسير أيضا .. الجواد الذي راهن عليه فيلبى هو الذى فاز أما الجواد الذى راهن عليه لورنس فقد خسر وخرج من الميدان .. ولكن نجم فيلبى مع ذلك لم يسطع سطوع نجم لورنس .

وورثه الملك سعود ضمن تركة أبيه الراحل ، فأبقىاه فى الحجاز ولكن أغراض السعوديين من فيلبى كانت قد انقضت بعد توطد العلاقة الرسمية بينهم وبين الحكومة الانجليزية .

ولسبب ما لم ينكشف سره بعد . صدر يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٥٥ بلاغ من الديوان الملكى بمكة يعلن أن الحكومة السعودية طلبت من المستر فيلبى - لا من الحاج عبد الله فيلبى - من كبار رجال الأعمال مغادرة البلاد وأن جلالة الملك سعود تفضل بمنحه الأملاك التي كانت له فى البلاد . وقال البيان : ان المستر فيلبى أقام مدة طويلة فى المملكة السعودية كان خلالها موضع الرعاية والاعزاز ولكن الحكومة لاحظت فى السنوات الأخيرة أنه أخذ يتجه اتجاهات غير لائقة بالرغم من تحذيره عدة مرات ، فاضطر جلالة الملك أن يتخذ معه أسهل ما يمكن من الاجراءات ، لصداقته السابقة مع جلالتة ، واكتفى بأن يطلب منه الخروج من البلاد دون أن يغمطه أى حق .

ثم يذهب فيلبى الى انجلترا . انه سيعيش غريبا بين أهله .

لذلك بقي في لبنان الى أن مات في أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ بمدينة
بيروت •• بيروت التي غطس فيها ابنه الصحفي فيلبي سنة ١٩٦٣
ثم قب في موسكو •• وهكذا كان بيروت حلقة الوصل بين
سيرة الأب والابن •

د « المساء » ، ١٩٦٣/٩/٩ ، ص ٨

يوم الحشر على الأرض

أكتب مذكراتي عن الحجاز (١٩٢٩ - ١٩٣٠) وأظن ألف
وأدور على الأطراف النائية ، كأتنى أهرب وأنا خائف من الوصول
الى قلب المعمة في هذا اليوم المهول ، ولكنى أعلم وفي دمي
مس من القشعريرة التي تسبق الحمى العائدة أن وصفه لا بد
آت ، فلا معنى ولا طعام لبقية الأيام دونه ، بل لا وجود للحجاز
حينئذ لولاه ، يوم تختصر ساعة من ساعاته عمر ١٥ قرنا وأكثر
وتأرجح وجدان أمة عريقة عالمية ، بأشواقها وأشجانها .

انه وعاء صغير في حساب الزمن ولكن سيل العواطف التي
صبت فيه وحده طوفان يغرق الدنيا ويفيض : الدعاء
والابتهالات ، الندم والتوبة ، بالتمتمة والجهر ، الدموع التي
غسلت القلوب ، الوجد الذي قلقل أصحابه من كل فج عميق ،
من أقصى الشمال والشرق الى أقصى الجنوب والغرب .. لافح
لأنه يوم الوقوف بين يدي الخالق ، ندى لأنه يوم الأخوة
بين البشر .

اننى فى حاجة لكى أصفه الى أن تتحفز أعصابى فى اتقاد
لا يقف الا على قيد شعرة من حد التمزق والهلاك .. أن تنفك
من أغلالها لتقوى على التحليق .. أن تتلبسنى كل شياطين
عبر .. أن تفضى الى اللغة بمكنونها الضنين .. أن تهبط
على مجنحة خفى الألفاظ والمعانى ، يسوقها الحب .. أن ترفرف
حولى وتوشوش لى بالسر فى أبهى صورة ، لا تترفق بى هذه
العاديات ، بل تفترسنى وتنهش قلبى ، ولكن هيهات ! اذن فكل
الذى يخرج من أحسن طوقى لن يكون الا كاللون الباهت ،
أو الصوت المحشرج الذى يكاد لا يبين .

انه يوم ٩ من ذى الحجة ، وقفة عرفات : ملايين من الخلق
تكفنوا وهم أحياء ، أرواحهم مشعشة ، وأبدانهم مشدودة
كالقوس . وجوههم وأذرعهم مرفوعة الى السماء ، ترجهم فرحة
اللقاء والعشم فى وجه الله ، فى صدق الوعد ، لا يمتلىء
الجو - لا قط ولا أبدا امتلاء هذا اليوم بزئير آدمى
بطلب الرحمة .

انه يوم الحج ، بروفة من هذه الدنيا ليوم الحشر فى
الآخرة . فاذا انقض الجمع مع غروب الشمس بقيت على الوادى
أكداس هائلة من أدران الانسان وهلاهيل ضعفه ، ظنوا أنهم
قد تحللوا منها ، فاذا هى لا تزال عالقة بأكفانهم البيض ، يعودون
بها الى معترك الحياة ، تسبقهم فى الدخول اذا رجعوا الى
بيوتهم .. وكيف ينال الرحمة من لا يذنب .

الحمل خفيف على جدة أغلب العام • تتنفس براحة رغم الرطوبة الشديدة لأن الهواء كله لسكانها وحدهم ، كل وجه يعرف الآخر ، والسحنات متقاربة ، الذباب يملك سوق البلد ، يعينى رأيت الجزار يكشف بجهد أسراه اللازمة باللحم بسكينه ليستطيع أن يقطعه للزبون • القنصلية مضعضعة ناعسة ، لا تستيقظ الا يوم أن يطوف المنادى معلنا عن قرب قيام الباخرة « تالودي » أو « الطائف » ، فمن كان عنده نية سفر ، أو لديه جواب ، أو طرد فأهلا وسهلا به في مكتب بواخر اليوستة الخديوية ، لا بد أن ثبت وجودنا ففسر تلك الليلة في حشو مظروفين كبيرين ، كل محتوياتهما مع الأسف حسابات وجرد مخازن وطلب أجازات •

ليس في القنصلية من يركع أو يسجد ولو مرة بالنهار أو بالليل •• انتى لا أنام رغم الحر الشديد الا داخل ناموسية وأبلغ ثلاثة أقراص من الكيئين كل يوم ، اتقاء للملاريا ، البعوض يبرقش حجرتى ، انتى أعلم أن من بينه بعوضة الحمى الصفراء ، ولكن ميكروبها لم يدخل الحجاز لحسن الحظ والا لكانت الطامة التى لا سبيل لمقاومتها •

الطباخ الصومالى ، هذا الشاب الوسيم أبو رقبة طويلة ، المفتون بالثياب الزاهية الألوان ، آكل من صنع يده ثلاثة أيام ، ثم أتنظره ثلاثة أيام ، هكذا بالتوالى طوال عامين دون أن يحدث

أقل خلل في الانتظام ، لأنه يرقد كومة من اللحم ترتجف وترتج
في ركن الحجرة من حمى الملاريا ، لو مسه تيار كهربائي
لما كانت هزته أخف ، من لقائي به وأنا أحب الصومال وأهله
حبا شديدا ، كان مثالا بديعا للأبناء والنخوة والاعتزاز
بالنفس - داخل غلاف من البساطة والبقاء على الفطرة •

استمعت اليه بلذّة كبيرة وهو يروي خروجه مع الجمال
للمرعى فتغيب عن أهله موسم العشب كله ، وجهه وهو يحدثني
يتلألأ بلمسة الهواء الطلق واحتضان الخلاء ، ولا غداء
إلا اللبن والتمر الجاف • كان في جدة متوحشا ، ولكنه مع ذلك
مزهو كالديك حين يخرج مع المساء يتبختر في سوقها • يخب
في ثياب زاهية الألوان ، وعلى رأسه لفة عمامة ملونة أيضا ،
وقد وضع عصاه وراءه على كتفه ودلى من على طرفيها ذراعيه •
هذه هي بهجته •

وكان لا بد أن يكون أول شيء أراه في الصباح حين أطل
من النافذة • انه استيقظ مع الفجر قبلى وخرج ليكسب رزقه •
الصباح رباح • انه رجل أصلع بدين يلبس مايوه بيكىنى ،
لم أره الا من بعيد • انه في قارب من حجم جذع شجرة محفور
يدفعه بمذراة يغرز طرفها في قاع المياه الضحلة في لسان البحر
الذى تطل عليه نافذتى ، ويغرز طرفها الآخر في الطين ، وكنت
أعجب كيف لا تحترقه وتبرز من فوق كتفه ، حتى اذا وصل الى

حيث يريد ترك القارب وغاص في الماء وخرج يحمل بين ذراعيه
وفوق صدره كتلة كبيرة من الطين الأغبر اللزج ، يلتقى بها في
القارب فيهتز ، ثم يعود ويغوص ، فاذا امتلأ القارب عاد به الى
الشاطئ وكوم فوقه هرما صغيرا من الطين ثم تعود المدراة
فتنغرز في ابطه ليستألف جنى محصوله .

يارب ا يا مقسم الأرزاق . تمنح بعضها من خرم ابرة .
هذا الطين أفضل من الأسمنت عند أهل جدة . . ولم أدر كيف
كان يباع ، أبالوزن أم بالكيل .

اعتدت الطست لأستحم ، ليس في الدار مياه جارئة ،
والبانو ترف لا نعلم به . ولكن لا بد من انتظار السقا ، امرأة
من التكارنة ، يأتون من غرب افريقيا ، فيقطعون القارة سيرا على
الأقدام ويعبرون البحر الى بر الحجاز ، فتخطفهم القبائل
وتسترقهم ، فاذا بالبحر القادم لبيت الله يصبح عبدا بظلم أهل
الأرض التي بها بيت الله . . فاذا وصل الناجون الى جدة سكنوا
في أطرافها في بيوت من الصفيح ، ويستعينون على الحياة بتشغيل
النساء في حمل الماء الى البيوت دون أن يقبل الرجل - فما بالك
بالمرأة - امتهان كرامته بالخدمة في البيوت .

ها هي قد دخلت ، اندلقت ضحكة عريضة على وجهها ،
فوق ظهرها طفل مربوط له رأس كالشمامة هاوية الى ظهره ،
وفوق رأسها صفيحة الماء ، قد غاضت فيها أظافرها الخمس .

لو دقت لما عشت • هذا الماء يأتينا من الكثافة التي تقطر
الماء الحلو من ماء البحر • انه ماء خال من الأملاح ، لا يتملق
فمك ، وكانت زجاجة من مياه فيشى أوافيان تعد في نظرنا من
الفاكهة النادرة •

أما أهل البلد فيشربون من مياه الآبار التي يحفرونها في
طريق السيول و يقيمون على حوافها يبدودا متدرجة في الارتفاع
حتى لا يقع في البحر الا زيد الماء دون قاعه المملوء بالحصي
والشوائب • انه ماء مبيض اللون ، تحاشيت أن أشربه وأنا
في ضيافة بعض أهل البلد رغم الحاحهم على •

أنت ترى أنني لا أزال ألفت وأدور على الأطراف النائية •

ورق • ورق • ورق •

كل غربال جديد وله تعلية • حين بدأت عملي لأول مرة في القنصلية « أمينا لمحفوفاتها » — هكذا كان اسم وظيفتي حينئذ — لاحظت في الفترة الطويلة التي فيها « التسليم والتسلم » بيني وبين الزميل الذي حلت محله أن وجهه كان يصاب بغم وضيق وهستيريا إذا جاء البريد فوجد معه زكية كبيرة حبلى في شهرها التاسع ، حشوها ورق له خشخشة كالأنين إذا لمستها يد •

كان ينادي « الحاجب » ويأمره بأن يلقيها فوراً في صندوق الزبالة ، فليس عندنا سلة مهملات تتسع لها ، ولا يليق بكرامة القنصلية أن تباع محتوياتها روبايكيا علناً أمام الجيران •

ولما سافر وتربعت في مقعده وتسلمت أول زكية قررت — لأتني غربال جديد — أن أفتحها ، فإذا بها مجموعة كاملة من كافة مطبوعات الحكومة • لم تبق وزارة إلا لها فيها نصيب • يا له من كنز ثمين •

هذه أولاً ثلاثة أعداد من « الوقائع المصرية » • • وكل عدد

لا يقل عن ٢٠٠ صفحة • انه لا يسجل فحسب كل أعمال الحكومة - في العاصمة والأقاليم - بل يكاد يعد لها أنفاسها •
فقى صدره نص كل ما صدر من قانون أو مرسوم أو ديكرتو أو أمر ملكي ، ثم نص كل قرار أصدره محافظ أو مدير بإنشاء قرافة أو ابطال قرافة ، بتحديد مواقف جديدة لعربات الحنطور وحمير الأجرة ، ثم نص جميع الاعلانات القضائية التي يحار المحضر في تسليمها لأصحابها لأنهم غائبون أو لأن عناوينهم مجهولة • ويلى ذلك بيان كامل لكل عقار سياع جبرا ولكل منقول محجوز عليه • من بعدها اعلانات عن قسائم التحصيل (مع ذكر أرقامها) التي ضاعت من الصرافين أو أمناء الخزنة •
واذا كان الموسم موسم امتحانات فسنجد بالوقائع المصرية « نمر التلاميذ » في جميع المواد مع ترتيبهم في امتحانات الابتدائية والكفاءة والبكالوريا وجميع الشهادات العليا •
اذا كان الموسم موسم برلمان فملحق بالعدد نص كامل لمحاضر جلساته وتقارير لجانه •

بذمتك ، هل يجوز التفريط في هذا الكنز الثمين ؟ قررت الاحتفاظ به • ومددت يدي وأخرجت « المجلة الزراعية » التي تصدرها وزارة الزراعة • هالتي وأنا أتصفحها ثراء المعلومات المبدولة بالمجان وأحسست أنني كنت أجهل كل شيء عن الطين والزرع • كان هذا شعورى أيضا كلما مددت يدي وأخرجت مجلة أو نشرة • المجلة البيطرية ، كائننى كنت أجهل كل شيء عن

الجاموس والبقر والكلاب • كيف لا أقرأ هذا البحث القيم
عن « الحيوان عند الفراعنة » • لتتركه الى فرصة أخرى •

نشرة الأمراض المعدية في عموم القطر ، لا بد لي من قراءتها
لأطمئن على صحة أهل بلدي • نشرة مصلحة الجمارك عن
الصادرات والواردات ، وهي شهرية وموسمية ونصف موسمية
وسنوية ، كيف لا أقرأها لأطمئن على ازدهار تجارتنا • نشرة
المواليد والوفيات في الوجهين البحر والقبلي ، بيانات لذيدة
لم تكن تحمل حينئذ وجه بيع •• ألا أريد أن أعرف أى بلد
ضربت الرقم القياسى في الوأوة وفي النواح • نشرة بيان عدد
السفن المارة بقناة السويس وجنسية أعلامها ، شئ جميل ،
شئ جميل • في قعر الزكية « مجلة وزارة الشؤون الاجتماعية » ،
كيف لا أقرأها وسلامة موسى رئيس تحريرها ؟

رفضت بإباء وشمم أن ألقى هذا الكنز - أى هذه
الزكية - في صندوق الزبالة • قررت الاحتفاظ بها ، لأقرأها
على مهل ، بل كنت أتوقع أن يطلبها منى بعض أعضاء « الجالية
المصرية » لبحث عن شئ يهمه •

وساقنى هذا الحرص الى القاء نظرة الى سلة المهملات ،
وجدت بها الأعداد القديمة من « الأهرام » و « المصرى »
« الالستراسيون » الفرنسية - وكانت القنصلية مشتركة

فيها • وقررت أيضا أن استنقذها من الضياع وأحتفظ بها ، فقد
نحتاج الى الرجوع اليها • وكان لابد أن أقيد كل شيء في
« سجل المكتبة » برقم مسلسل ، يتم بمقتضاه جرد هذه المكتبة
كل سنة مرة مع ارسال محضر الجرد للوزارة •

بعد شهر واحد امتلأ الدولاب المخصص للمكتبة في غرفتي •
صرفت مبلغا كبيرا لاعداد رفوف داير مايدور ، امتلأت في بحر
ثلاثة أشهر • زحفت على بقية حجرات القنصلية والدهاليز ،
وكدت أبلغ بير السلم • كعنت القنصلية مبالغ طائلة • ضاق بي
الموظفون ذرعا • ثقل دمي عليهم • انشغلت بالتستيف والترتيب ،
فلم تبق لى دقيقة واحدة لأقرأ ولو سطرا واحدا في هذا الكنز
الشمين •

لم يأتنى أحد ليطلب « الوقائع المصرية » أو « المجلة
الزراعية » • كنت أول الأمر أحس بزهو شديد وأنا أتأمل
المكتبة في حالة النشوء والارتقاء ، ثم بدأ شيء من الوجمل يدب
في قلبي • غلبنى شعور قوى حساد يأتنى لست أنا وحدى ،
بل العالم كله مهدد بجيش يطاردنا ، أو بحر عظيم يزحف ليغرقنا ،
بحر من الورق ، هذا هو طوفان العصر الحديث • دمدمة
هذا البحر هي من دقدقة ملايين الملايين من كاتبى « التبرير » ،
وهمهمة ألوف مؤلفة من مطابع ضخمة ، تتكاثر كالقطر أمام

العين ، لها أشكال الحيوانات البدائية المتوحشة • في ذهني
صوت نهش وتمزيق بالأنياب لمقول البشر وأرواحهم •

ومنذ حماقتي في أول قنصلية لم يفارقتي الاحساس بضغط
هذا الطوفان على صدرى ، زاد وطأة ، على حين اشتركت
في بعض المؤتمرات ، وحين حضرت مرة دورة الأمم المتحدة •
لا أستطيع أن أصف أكداس الورق التي كانت تنهال على ، ولعل
الدافع لى على كتابة هذا المقال أننى سافرت أخيرا الى بيروت
لأحضر مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا بحقيبة تزن ١٠ كيلو ، وعدت
ووزنها ٣٥ كيلو • والفرق ثقل أنه ليس هدايا وأدوية ، بل
ورق •• ورق •• ورق •

لا أمل في « نوح » جديد ينقذنا • اذن لابد من الاسراع
بإيجاد توازن بين قدرة الورق على الهجوم وقدرتنا على
الدفاع • هل هو العقل الإلكتروني ؟ هل لابد من اختراع لغة
جديدة رمزية تعالج فيها الكلمة الواحدة محل سفر كامل ؟ أم الحل
أن تؤلف جمبعيات فدائية تتولى تخليع أشجار العالم كله لتهدأ
صدورنا من اللهاث وينزاح عنها هذا الطوفان المخيف ؟

علمت بعد عودتى من بيروت أن حريقا قد التهم محتويات

مخزن احدى شركات توزيع المطبوعات ، وكنت أمر به فأشيع
بوجهي عنه ، فلا شيء أثقل وزنا ودما من الكتاب المرجوع ،
الراقد كالميت • انه كالقطار لاشيء أخف منه في جريه ، ولا أثقل
منه اذا تعطل ووقف • أوكد لك أنني خشيت أن يقبض على
بتهمة اضرار نية احداث الحريق في هذا المخزن • فالحق هذا
هو ما كنت أتمناه كلما مررت بهذا المخزن الخيف •

(« المساء » ، ١٠/٤/١٩٦٧ ، ص ٤)

(٣)

في درب الحياة

مذكرات فنان غشيم في الكار . . !

أتابع ذكرياتي عن أول لقاء لي بفن الأوبرا ، لا يدفعني على أن أرويها هنا فأعرض لتهمة التحدث عن النفس الا أملى في أن تكون ذات نفع لك ، والنفع عندي يشمل الابتسام ، فلاشك أن الجيل الحاضر من حقه أن يلم بتجارب الجيل الماضي وما لقيه في طريقه من عثرات وأوهام حتى لا تتكرر هذه العثرات وهذه الأوهام ، فلعل العظة ان جابت ألف مرة أن تصيب مرة . ولاشك أن من واجب الجيل السابق ألا يكتفم الشهادة ، فلا نجاة لكل جيل من ألم شعوره بأنه باق متصل الأثر ، لأنه يورث الجيل اللاحق أفضل ما عنده ، عصارة تجاربه ، عسى أن يحقق ما عجز هو عن تحقيقه .

ولا يهم الجيل الحاضر أن يعرف عن الجيل السابق كيف كان يأكل ويشرب وماذا كان يلبس ، بل لا يهمه أن يعرف ماذا كان يقرأ أو حتى ماذا خلف وماذا كتب ، بقدر ما يهمه أن يعرف النمو الروحي لهذا الجيل السابق أن تتكشف له الستار

ليرى من ورائه صراع النفوس مع المبادئ والمعتقدات ، التحول من الشك الى اليقين أو من اليقين الى الشك ، تلمس الطريق في الظلام عسى أن تؤدي سراديبه الملتوية الى مخرج يدل عليه من بعيد بصيص من نور ، يومض وينطفئ ، تخبط البحث عن مرفأ يعصم من الغرق • راكب الزورق الذى تتقاذفه الأمواج ، يقذف بحبل يربطه على وتد يمثل وحده الثبات فى عالم مقلقل •

ومن أسف أن هذا النوع من المكاشفة غير معروف عندنا ، ان أردنا أن نعرف أحدث مثل له ينبغى أن نقفز الى الوراء قفزة طويلة لنصل الى كتاب « المنقذ من الضلال » ، فانه ترجمة ذاتية روحية للامام الغزالى • لم يخجل من الاعتراف لنا فيه بتخبط ضلاله قبل أن يهتدى الى مذهب يؤمن به •

أما نحن فتخرج اليوم من التحدث عن ذنوبنا سابق ، حتى بعد أن نتوب الى الرشيد فنندم وتصدق توبتنا ، نخشى الاعتراف بالضلال الذى خضناه من قبل الوصول الى نور الهداية •

لم يخجل الكاتب اليونانى كازانزاكس — وأغلب الظن أن جائزة نوبل كانت ستمنح له لو امتد به العمر — أن يروى فى كتابه القذ « رسالة الى الجريكو » قصة تخبط روحه فى البحث عن عقيدة •

وإذا كانت ذكرياتي التي أروىها هنا لا ترتفع الى هذه
القمة الأوليمبية ، فانها — رغم تواضعها وقلة خطرها — تنبع
من نفس الرغبة في أن يكشف الجيل السابق عن تجاربه لينتفع
بها الجيل الحاضر .

رويت لك في مقال سابق خط سيرى من القاهرة الى جدة
ثم الى استانبول . وقد تفضلت وزارة الخارجية فنقلتني بعد
تركيا الى ايطاليا ، فكان هذا أول لقاء لى بالحضارة الغربية .
ومن حسن حظى ، أن هذا اللقاء الأول لم يتأخر فلا يلحقنى
الا وأنا شيخ متبلد الذهن ، عاجز عن التأثر والاستيعاب ، ففى
سنة ١٩٣٤ وصلت الى روما — عاصمة الرييسانس ، ديار
ميخائيل أنجيلو ورفائيل ، موطن داتنى وجاليليو ، بلد
فراى وروسينى وبوتشيني ، حتى ماسكانى كان لا يزال على
قيد الحياة .

وكنت قبل وصولى الى روما قد قرأت عن الحضارة الغربية
وفنونها وآدابها حتى كدت أتلغ مقلتى . دراسة كبار الرسامين
في صور اهم في الكتب لا في المتاحف ، وكذلك ان فاتنى طول
الاستماع الى الكونسير الى الكونسيرتات والأوبرات — حتى
عن طريق الاسطوانات فانى كنت أوشك أن أعرف كل شئ
عن حياة كبار الملحنين في تاريخ الموسيقى . أعرف أسماء أعمالهم
وظروف تأليفها . كنت خبيرا في الرسم وأنا أعمى ، وخبيرا في
الموسيقى وأنا أصم .

كنت « ريدزدايجست » لمكتبة كبيرة ، لا أزيد أنا الآخر
عن أن أكون كتاباً - في حجم كتاب الجيب - مدفوناً في مخزن
مظلم لا يرى النور ، وفي بطنه علم كثير . وكان خيراً لى - وهذا
شئ لم أدركه إلا فيما بعد - أن أقرأ نصف أو حتى ربع ما قرأت
ثم أذهب الى المتاحف وأستمع الى الموسيقى ضعف ذهائى
واستماعى .

وكان قد بقى فى نفسى من هذه القراءة أثر الرحلة الى روما
على الشعراء الرومانسيين الانجليز ، يرون وكتيس وشيلى ،
وكيف أن الهة الشمس جادت لهم بخير ما عندها على شاطئ
خليج نابولى ، بين اشراق النور وزرقة البحر وصفاء السماء .
ما أبعد بهجة هذه الألوان عن كآبة ألوان بلدهم انجلترا ،
تراب الفحم يهبط على مدن ضائعة فى الضباب ، يجرى فيها
الناس كالأشباح الضالة ، وأجسادهم ترتجف من شدة
البرد .

وعرفت كذلك أثر الرحلة الى روما على جوته ، فقد كان
اجتيازه نجيل الألب من الشمال الى الجنوب حداً فاصلاً فى
حياته بين الضباب والنور ، الغموض والوضوح ، بين الهمجية
والحضارة .

فكان يخيّل لى قبل وصولى أتتى اذا حلت بروما سأسجد

على الأرض لألثمها ، وأتمسح بأعمدة كنيسة بطرس وأرقد على
سلم الأوبرا •

ولكن عبثا بحثت عن هزة قلبى ، عن أثر لانبهارى ••
وجدت أن النور فى جو روما أن لم يساو فهو لا يزيد عن النور
فى جو بلدى الذى لا يعرف الضباب •

شتان فى الرحلة الى روما بين رجل يجيئها من الشمال
ومعه تركة ثقيلة من مخلفات همجية ، قبائل الفاندال والفيونيون
والفايكنج ، وأحزابهم ، وبين رجل يجيئها من الجنوب ، هو من
أبناء الشرق ، فى جمبته كنز ثمين من حضارة كانت لا تقل عن
حضارة أوربا ، ومن ثقافة ان اختلفت عن ثقافتها فهي لا تقل
عنها شمولا ولا قدرة على التملك وعلى اثاره الاعجاب والولاء •

ومع ذلك لم أجهل أنى قادم من بلد متخلف ، سبقه الزمن
شوطا طويلا ، فكان من الواجب على أن أجرى لألحقه ، حتى اذا
ساوته استطعت أن انفصل وأثيق طريقى مستقلا عنه ، واذا
أخذت منه فسأعلم أننى سأعطيه المقابل •

وبدأت أتعلم لأول مرة - بالاستماع والنظر - لا بالقراءة،
فأدخل المتاحف وأغشى الأوبرا وحفلات الكونسير ، مواظبا
كأننى تلميذ يطمع فى جائزة « حسن السير والسلوك » •

ولا أكتفك أيضا أنني اندفعت في هذا التلمذ لأننى أفت أن
أجلس في المآدب الرسمية بجوار سيدة جميلة مثقفة فتجدنى
لا أحسن الكلام الا فى الأكل والطبخ وآخر الأفلام ، فاذا
أدارت وجهها عنى والتفتت أغلب الوقت الى جارها فى الجانب
الآخر ، وكان انجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا ، دار الحديث عن
المعارض والكونسيرتات .. انى أقترح على وزارة الخارجية أن
تجعل النجاح فى الامتحان عن تاريخ الفنون الجميلة شرطا
أساسيا لدخول السلك الدبلوماسى والقنصرلى .. سينتقل
مبعوثوها - بفضل هذا النجاح من مرتبة « موظف » الى
مرتبة « بنى آدم » .

رأيت كيف وصلت الى روما وأنا مثقف وغشيم فى الكار
معا ، وقد بدا اعتدادى بأننى موظف قد الدنيا فى غشوميتى فى
بحشى عن سكن . أبى لى السلك الدبلوماسى والقنصرلى الا أن
أبحث عن شقة مفروشة فى عمارة حديثة مبنية بالأسمنت المسلح
على طراز « نوبى شنتو » (١٩٠٠) فى أحدث أحياء روما ، كان
من قبل أرضا خلوية فى أطراف المدينة ، مثل أرض مدينة
نصر فى القاهرة مثلا . وقيل لى فى وصف هذه الشقة انها لو كس
لا لشيء الا لأن بها حماما وتدفئة مركزية بأنايب المياه ،
ولأن الأثاث من طراز « نوبى شنتو » أيضا ، خطوط وزوايا
قائمة وأرجل كل منضلة مفرشحة مودرن جدا .

وتحملت في سبيل الأبهة ما لهذه العمارة الحديثة من
مقدرة فائقة على توصيل الصوت ، كنت أسكن في الدور الثالث
فاذا لعب طفل بالبلى على سطح العمارة - وهي من عشرة
أدوار - سمعت خبطة البلية في البلية ترن في أذني . وكنت
أعجب كيف يمكن أن تقال في هذه العمارة كلمة وتبقى
سرا .

ولم أدرك فقر ثقافتى واحساسى الفنى الا بعد أن خالطت
قرنائى الانجليز والألمان والأمريكان . وجدتهم جميعا يصدون
عن الأحياء الحديثة ولا يبحثون لهم عن سكن الا في الأحياء
التاريخية القديمة ، وسط الأزقة الضيقة ، والدخول الى الدار
من تحت بوابات عتيقة ، ليس في البيت مصعد لأنه من دورين
وعلو درجة السلم نصف متر ، وير السلم ظلام كالكل ، واذا
دخلت الردهة لم تجد الا مدفئة مفتوحة ليشعل بها حطب فروع
الشجر الغليظة . وأمام المدفئة - عن يمين ويسار - كرسيان
عتيقان . هذا كل الأثاث . على رف المدفئة بعض خزف
الأوترسك . وعلى الجدار لوحة من القرن الخامس عشر (هكذا
يقال) . هذه هي روما التى يحبونها . روما مصدر ثقافتهم ،
فليس الا في مثل هذه الدور ترتاح نفوسهم . أما الأحياء
الحديثة فيتركونها للنفس أمثالى .

صاحب هذه الشقة بارون أو مركيز ايطالى مفلس ، فى
اصبح يده خاتم ثمين موروث عن كاردينال ، والشقة والخاتم
واللقب حجارة ودع تفرش على الأرض بأمل اصطياد عروس
غنية من بلاد الدولار .

(« النساء » ، ١٩٦٤/٢/٢٤ ، ص ٨)

الزهرة والاصيص ..

كنت لا أعود الى الوطن أثناء عملي بالسلك الدبلوماسي
الا في اجازة قصيرة مرة كل سنتين أو ثلاث ، فكان أول شيء
أفعله بعد أن أنقض غبار السفر ، وقبل أن أزور اخوتي ، أن
أذهب الى بيتها في الحلية الجديدة ، أن أحج اليها ، لأجلس بين
يديها في الصالون المريح المكنون الذي لم يتبدل فيه شيء مدى
أربعين عاما . المقاعد هي هي في أماكنها هي هي . فترات الصمت
بيننا أطول من فترات الكلام ، وبارك لنا في هذا الصمت أن
زوجها لا يشارك في الحديث الا بإبتسامة تجمع بين أذنيه ،
تشق وجهه الوردي المستدير في رأسه المكور الفاحم الشعر .

لست بالغريب عن الدار حتى تفسد عليه زيارتي بحبخته
في جلبابه السكروة المهفف . هو ابن ذوات من حي سيدنا
الحسين وان كان يتقن الفرنسية كأحد أبنائها .. ثم أقدم لها
زجاجة العطر الذي تحبه فلا تشكرني بكلمة ، فلا يزال من
حق الست الستونة أن تتقبل هدايا عيالها كأنها قربان ، ولكن

نظرتينا - وهما تبسيمان كتما - تتقابلان خطما ، فاذا المخطوف هو عمري كله منذ طفولتي . من نظرتها يقطر الحنو والاعزاز ، وأعلم أن نظرتي تتمم بالود والاعزاز . هي المعطية وأنا المتلقى . وتصمت على حين أن زوجها يقلب الزجاجاة كأنها من العجائب التي لم يرها من قبل ولا تفوته مع ذلك كلمة أو اشارة رمزية في حديثنا المتقطع .

وعدت آخر مرة بعد غيبة طالت ست سنوات ، وذهبت اليها ثم خرجت - وزوجها يصحبني عبر الحديقة الصغيرة حتى الباب - وأنا حزين منكسر القلب .

هذه الطفلة الشقراء - أم الضفيرتين ، النظيفة الملبس . . . جوب للركبة أبيض ناصع ، وحذاء قصير أسود لامع ، تجلها « الستوتية » من قمة رأسها الى أخمص قدميها . ان تكن واحدة منا نحن أطفال الحي الذين يلعبون في الشارع أمام البيوت فانها أصبحت منذ أول يوم لها معنا - دون أن ترشح نفسها أو يجرى انتخاب - ست الستات عند الشلة . ربما كانت أصغر منا سنا ، لكنها كانت لنا جميعا أختنا الكبرى ، بل اعزازنا لها يفوق اعزازنا لأخواتنا الشقيقات . . أكبر سعادة لنا أن تقنع بالجلوس على دكة البواب وتراقب هي لعبنا . لا طعم للذة والقلبة الا على مرأى منها . وهي « الأم » في « الاستغماية » . عندها نودع ما كسبناه من البلى الملون والرصاص اذا ضاقت

به جيوبنا • هي التي تقرر اذا كان الجون « محسوباً أو غير محسوب » •

لا بأس عندنا أن تقوم أحياناً لتشارك في نط الحبل ، بمفردها أو بين اثنتين تتوليان ترقيصها ، لتسحرنا برشاقتها الهوانمي ، أو لعبة « الرشته » فلا يكون بين الأخريات من هي أبرع منها وأخف قفزا على قدم واحدة أو احكاما في زحزة الطوبة من خانة الى خانة ، فاذا استراحت في « الخانة الرابعة » وضعت يديها في وسطها « وشتت » دون أن تستعين بمنديلها ، وهذا هو عيبها الوحيد ، فارتعشت أرنبه ألقها ، اذ كان لها ألق دقيقة شماء مجذوبة المنخرين الى أعلا قليلا •

تشارك في اللعب تنازلا منها ، كأنما لكى ترى بقية البنات كيف يكون نط الحبل وأصول الرشته • قد تتشارك نحن الأطفال فيما بيننا ، ونشد بعض البنات من الشعر أو نوقعهن أرضا أو نرغدهن ونزق في وجوههن ، لكن ميهات لأحد منا أن يلمس ست البنات بأصبعه أو يرفع في مخاطبتها صوته • كانت تمثل كل ما في قلوبنا الصغيرة من حماسة غامضة وتلف مبهم للدفاع عن حرم مقدس جميل لا ندري ما هو •

ثم قبيل الغروب يطلع علينا باعم الجيلاتي التركي القزم ، عم سوسو ، ينفخ في بوق صغير ، فتتحلق حوله ، ويشترى كل

منا قمعا ، ثم تتفرق وندخل بيوتنا .. نفخ هذا البوق لا يزال
يرن في أذنى الى اليوم بعد أن جاوزت الستين •

ودخلنا المدارس الثانوية ، هنا وهناك ، وابسنا البنطلون
الطويل ، وانقطع اللعب أمام البيوت ، واحتجبت ست البنات
عنا • ولكن جميع الأسر في هذا الشارع تتعارف وتتزاور ومعها
الأولاد وان كبروا ، فكنا نحس أن الشلة لم تنفض ، وأن ست
الستات ، واسطة العقد ، هناك وراء هذه النافذة في هذا
البيت • فاق طولها طولنا • فتاة حلوة في ميعة الصبا ، من حقها
اللهو والعفرتة ولكن الستوية ظلت تجللهما من قمة رأسها الى
أخمص قدميها •

وكبرنا ، وأصبح فينا المحامي والطبيب والملحق الدبلوماسي،
وتزوج بعض أولاد الحي من بعض بنات الحي ، ولكن أحدا
منا لم يتقدم لخطبة ست الستات • قد تقول : هذا منطق غير
معقول ولا مبرر ونتيجة غير متوقعة ، ولكن ثق أن هذا هو الذي
حدث • أنا لا أعرف السبب فتفلسف أنت كما تريد • قل انها
كانت لاتزال في نظرنا هي أبدا شيئا مقدسا أبعد من منازلنا •
قل اننا كنا تخطئ في ذلك الوقت بين الجنس والتلوث ، أو على
الأقل بين الجنس والامتهان ، وكان لها في قلوبنا اعزاز وتوقير
لا حد لهما •

وعلمنا ذات يوم أنها تزوجت من شاب ابن ذوات من حي

الحسين • لقد أحسنا حينئذ وحسب بمقدار خسارتنا وحقاقتنا •
قلوبنا توجعت بأعين خافت ، ثم محونا ذلك كله بافتعال اشتياق
لرؤية الزوج ، فوجدناه شابا بدينا ، له رأس مكور ، ووجه
مستدير وردى ، شعره كث قصير أسود كالقجم ، لا يحب
الكلام ، بل يشارك في الحديث بإبتسامة تجمع أذنيه وتشق
وجهه • أحسنا أنه انسان ابن أصل ، طيب القلب جدا ، وأنه
سيكون لست الستات نعم التابع المطيع فاسترحنا ، لأن شخصيته
لن تطفئ على شخصيتها •

وكان زواجها بمثابة عودة بعد انقطاع طويل لنفخ بوق بائع
الجيلاتى التركى القزم • فكما كانت عربته تجمعنا حولها ، أصبح
بيتها يجمع الشلة بعد تفرقها • بحثت عنا واحدا واحدا ودعتنا
الى بيتها ، وفتحت لنا صالونها • عندها تنفض المنازعات وتصفو
القلوب • التأمت الشلة فى هذا الصالون الذى لم يتبدل فيه
شئ • مدى خمسين عاما • لم يتغير أيضا دارها ، ولكن زيارتى
المتقطعة - ربما - هى التى جعلتنى أقدر الجميع على ملاحظة
هبوطها سلم الحياة درجة درجة •

بعد زمن هو فى الحساب طويل ، وهو عندى كغمضة عين ،
كيف يارب أصبحت ست الستات الحلوة الفتية هذه المرأة
المحطمة • لا أظن أن السبب هو سلسلة الأمراض التى مرت

بها . في قلبى شك أن زوجها ابن الذوات لم يفلح الا في تبديد
ما كانت تملكه ، بكسله لا بعدوانه .

في آخر زيارة لى دخلت على في ثوب ذى كمين طويلين
وصف أزرار من أمام ، تتوكأ على ذراع زوجها وهى ترمقه
بحضآن وتشكره بريق حلو . أحيانا تتوكأ الدادة العجوز على
الطفل ، هكذا رأيتهما . جلست على المقعد بصعوبة ، وتناولت
الزجاجة منى بيد مرتعشة . تتكلم قليلا ثم تلهث . الشعر
الكستنائى أصبح نحىلا ، خالطه المشيب . سألتنى عن بقية
الشلة واحدا واحدا ، فأدركت أن زيارتهم لها قد قلت ، الدنيا
تلاهى . وانسرفت نظرة منى الى زوجها ، فاذا هو لا يزال شابا
يدينا ، وجه مستدير وردى ، ورأس مكور ، وابتسامة تجمع
أذنية وتشق وجهه . لم تبيض في رأسه شعرة واحدة .

ولما خرجت للشارع أدركت أيضا - وربما لأول مرة -
أن حى الحلمية الجديدة قد تبدل وجها بوجه وأقواما بأقوام .
أحمست أثنى انتهيت من تقليب البوم حتى وصلت الى ورقته
الآخيرة ، فقفلت غلافه السميك . . مشيت وأنا أصيخ السمع
أنتظر أن يأتينى ولو من بعيد صوت نفخ بوق صغير اذ كانت
الشمس قد آذنت بمغيب .

(« التعاون » ، العدد ١٨٥ ، ١٩٦٦/٩/٤ ، ص ٨)

اعترافات . . ومضايقات .

لا أجهل أن كل افضاء بأسرار النفس لا يبرأ من ضعف
وسخف واشتهاء ذليل لصبب الهموم على رأس المستمع ،
ولا يسلم من رغبة مريضة في لفت الأنظار ولو بالتعري ، وطلب
تبرير النقيصة الى استجداء الثناء عليها ، باعتبارها مظهرا لارادة
مستقلة تأبى التقيد بسلاسل قافلة الأسرى الطائعين . ومع ذلك
ألحت على نفسي اليوم - وهى كعهدا أمارة بالسوء - أن
أحدثك عن بعض أسراري ، فلم أقو على مقاومتها - شأنى
معهما دائما - ولعلك لا تعلم أن نشأت فى عصر كان يجب
الاعترافات ، ومن أوائل الكتب التى قرأتها فى صباى بالانجليزية
« اعترافات آكل أفيون » ، وبالعربية « اعترافات عريجي حنطور »
و « اعترافات مومس » . الخ . الخ . ولا أدري تعليلا
لاختفاء هذا اللون من الكتب فى الوقت الحاضر . ربما كانت
القصة هى التى قتلتها ، أو لعله لقي مضرعه على يد باب
« اسألونى » فى الصحف والمجلات . والى آتمنى أن أبعث هذا

اللون من قبره وأضح كتابا بعنوان « اعترافات قصصى » ، يكون هذا المقال أول فصوله •



لا أزعج لنفسي قدرة على التنبؤ ، ولو تخيلت ثم خلت لكائنات قراءة نشرة الأرصاد الجوية شافية لى وحدها من حماقتى ، فلم يكن اذن التنبؤ فى مطلع حياتى بما يحدث لى الآن فى شيخوختى هو سبب احجامى حينئذ عن نشر أوائل قصصى الا بأسماء مستعارة ، وعمدت زيادة فى التضليل الى سرعة التنقل بين رموز مختلفة لا رابطة بينها ، فكتبت مرة باسم « لبيب » وهو اسم لصديق أحبه ، وتلميح من بعيد بأنتى - يا للغرور - أفهم بالاشارة ، ومرة بامضاء « قصير » مبالغة فى السخرية بنفسى وان أضمرت أملا فى أن يفسرها بعض القراء بأنها تجديد لذكرى « قصير » داهية العرب الذى قال فى قصة الزباء : « لو كان يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا ، ومرة بامضاء « عبد الرحمن ابن حسن » حين كنت أهيم بالجبرتنى ، ومرة بامضاء « عابر سبيل » ، فقد كانت هذه صفتى فى الحياة حينئذ ، وربما الآن أيضا ، واكتفيت مرارا بالحرف الأول من اسمى ، ثم كنت أشتط فى ارهاق أصفار المطبعة فأتابع حرف الياء بسطر يكاد يكون كاملا من نقط متتالية ، كأننى أعوض ما فاتنى فى الطول ، ومرة باسم « أبو نهى » وهو كنيتى بعد أن رزقت بالولد • وآخر هذا العبث كان امضاء « شاكر فضل الله » وهى الحكمة التى

تكتب وغيرها من أمثالها على المقاعد العربية المطعمة بالصدف ،
والتي تقول بخط جميل « القناعة كنز لا يفنى » ، وكان هذا
مقعدى المفضل فى بيت صديق بدأت أخالطه ، وإن لم أنعم فوقه
براحة وبقيت ساقاى مدلدلتين أمامه ، ولكنى كنت أجد شيئا
من البركة حين تتمسح كفاى حتى تتضمخا بعطر هذه الحكمة •

فعلت هذا لأنى كنت أؤمن فى تلك العهود كلها أن الكاتب
يكفيه أن يقحم رأيه على قرائه ، فينبغى أن يتورع بعدئذ من
أن يقحم عليهم نفسه فوق البيعة ، أو قل لعلى توهمت أن وراء
التستر حرية تتيح لى أن أخوض كما أشاء فى سيرة أصدقائى ،
أو أنبش عش زناير دون أن يسيح دمي • سمها أن شئت — كما
أزعم — تواضعا وحكمة ، وسمها — أن شئت — جينا وقلة وثوق
بالنفس ، ولكن الحقيقة أيضا أننى كنت أئسهى تذوق لذة عجيبة،
أن أكون فى مجتمع من الناس ، أمل أن يكون بينهم واحد —
واحد وحيد على الأقل — قد قرأ ما كتبت ، فيثير الحديث
حوله ومن لا يعلمون أننى أنا المجرم أو البطل فيفتحون باب
قلوبهم على مصراعيه ، وأستمع الى رأى صريح بلا مجاملة ، فإن
كان مدحا أرضانى مرتين ، وإن كان ذما جعلت أذنا من طين وأذنا
من عجبن وكفى الله المؤمنين القتال •

والغريب أننى رغم طول تلهفى على نوال هذه اللذة لم
أظفر بها مرة واحدة • الظاهر أننى كنت أخالط أناسا لا يقرأون ،

أو يقرأون كل شيء إلا ما أكتب ، أو أنتى كنت أكتب فى صحف
ومجلات بلغ من عار بوارها أن أصبحت سرية •

وقد ضقت مرة بطول خييتى واخفاقى فزل لسانى فى مجتمع
ذات يوم وسألت الحاضرين وسط الحديث عرضا ، وأنا
أتمنع التعاطف : « هل قرأتم مقالا يامضاء كذا فى صحيفة
كذا ؟ » ، وكان هو آخر مقال لى • وكنت أظن أنتى أحسنت
المكر ، فاذا بى أجدهم — لشدة دهشتى — قد أدركوا على الفور
أنتى كاتب هذا المقال •

الظاهر أنتى لا أحسن الكذب ، أو لعل المثل القائل « من
كانت على رأسه بطحة يحسس عليها » هو الذى هداهم الى
السر • وكان من سوء حظى أن ذلك المقال هو أسخف ما كتبت ،
فأنهالوا على توبيخا وتقريعا ، فتبت من ذلك اليوم عن العودة
لمثل هذه الحماسة وألجمت لسانى وضاعت على الى الأبد هذه
اللذة التى جريت وراءها طويلا •

والغالب أنتى تعبت من هذا التستر ، أو قل ملته لطول
صحبتة ، وربما اشتقت للشعور حين تقدم بى العمر أن تمضى
سيرتى كلها ملخصة فى ثلاث كلمات « صرخة فى واد » ، فكشفت
عن نفسى فاذا بى على غير ما أنتظر أقع فى متاعب عجيبة لا قبل
لى بها ، بحيث أصبحت أترحم على أيام أسمائى المستعارة ، فقد
كنت بها أكثر سعادة •

أول المتاعب هذه الحيرة الشديدة ازاء ملاحقة الناس
لى - أصدقاء وغرباء - بأراء شديدة التناقض • يقول لى
واحد عن قصة أنشرها : « اياك أن تعدل عن هذا اللون ، شئ
بديع وحاجة عظيمة » • فأشك في ذكائه قليلا • وهذا آخر يقول
لى عنها : « لم أفهم كلمة واحدة • ماذا تريد أن تقول ؟ ينبغي
أن تعدل عن هذا اللون الى غيره ، وتكتب بكيفية زملائك
الناجمين عن الحب والمراهنات ، هذه هى بضاعة اليوم » •

وأظن بعد ذلك أياما تسمع أذننى اليمنى وسوسة من
اليسار تقول : « اعدل عن هذا اللون » ، وتسمع أذننى اليسرى
وشوشة من اليمين تقول : « اياك أن تعدل عن هذا اللون » ،
فاذا أمسكت بالقلم تلجلجت طويلا ولا أقبح في خط كلمة
واحدة الا اذا نسيت الاثنتين معا • ومع ذلك يظل نقد ثانى
الفارسين ينخر في قلبى ، فأعتمد السهولة والبساطة على خلاف
طبعى ، فاذا به هو الذى يكلمنى بالتليفون على الريق ويقول
لى : « برضه مش فاهم » • أكاد أراه يطلع لى لسانه •

أما الفارس الأول فيكتمها في قلبه حتى يلقانى ليقول
ولو بعد مضى ستة شهور انها قصة تؤذن بتدهورى وخيابتى •
ان ارضاء الناس جميعا من رابع المستحيالات ، يأتى قبل
الغول والعنقاء والخل الوفى •



وأصبحت كذلك اذا كتبت قصة أجعلها وليدة الخيال
وحده إلا وخرج لى انسان (لأجمع بين الرجل والمرأة)
يقول لى :

— ألا تستحى أن تصفنى بهذا الوصف القبيح ، وتشنع
بى علنا ؟ خلق الله كلهم بين يديك فلماذا جاءت قرعتك على ؟ هل
أنت قصصى أم جاسوس أم بطل عالمى فى الغيبة ؟

ثم يقاطعنى ويدير دعايته بتقبيح سيرتى والازراء بأدبى
محذرا بقية الناس منى • حتى فكرت أن أعدل الى كتابة قصص
تدور على السنة الحيوان تقليدا لكليلة ودمنة • وحتى لو فعلت
هذا لما سلمت — فيما أظن — من انسان يظن أنى قصده حين
وصفت الثور « شترية » • سأكتب عن الأسود والفيلة
والطاوويس وحدها •

لكن الأدهى من ذلك كله أننى وجدت أغلب الناس الذين
أعاشرهم عن مودة قديمة أو حديثه قد انقلبوا فجأة الى
« متعهدي توريد مواضيع قصص بالمجان ولوجه الله » • هم كل
واحد منهم اذا قابلنى أن يروى لى من الباب للطاق حكاية سخيفة
ثم يضيف :

— ألا تصلح بذمتك موضوع قصة هائلة ؟ لماذا
لا تكتبها ؟

طبعا هذا الصديق المتطوع يخفى العزم على التنديد بى
إذا كتبت هذه القصة قائلا أنتى سرقتها خلصة من حضرته •

هذا التطوع شائع بين كثير من الناس ، يظنون فى أنفسهم
خفة الدم وهم ثقلاء جدا ، بل هم من الغرور بحيث يؤمنون أن
كتابة القصة عبث لا يليق بكرامتهم فيخلعون على الحقنى أمثالى
مدا لهم فى غيهم السخيف •

تصور أنتى أضطرت أخيرا أن أهرب من الحلاق الذى
أترين عنده منذ صغرى ، ومنذ أسمائى المستعارة ، رغم أنتى
أستريح لركة لمسته وهو يلكز رأسى ليجعلنى أطأطىء البصلة
لينكشف له قفاى عن آخره • أو لا يعلم أن ثورة أعصابى
حيثذ تبلغ ذروتها ؟

أتدرى لماذا هربت ؟ لأنه بدأ أيضا يقترح على موضوعات
لقصصى •

وجاء على زمن أصبحت فيه لا أقوى على دخول دارى اذا
رجعت آخر الليل الا بعد أن أحك على بلاط السلم كل ما علق
بجمعبتى من هذه الحكايات كما يحك العائد من ليلة مطيرة
حذاءه على المسحة الليف أمام الباب • (على فكرة : لماذا
اختفت هذه المسحة فى أيامنا هذه ؟) •



والألغن من هذا كله .. رجل لا أعرفه ، أقابله في مكتب
حكومى فى شغلة ، ويكون قد سمع باسمى ولا أدرى أين •
فأراه يترك المسألة التى جئت من أجلها ويقبل على متعظفا ودودا
وهو يقول : « أنا مبسوط يا أستاذ من قصتك المسلسلة » •
ولم أكتب عمري قصة مسلسلة ، أو يقول انه معجب بكتسابى
الأخير ، فاذ نكثته تبين لى أنه لم يقرأه •

وآخر الدواهى رجل قال لى أخيرا وهو يمدحنى بلا سبب
ولا غنم :

— انك رجل تقدمى ، ولكن هل كتبت شيئا بعد « لمبة
الست نفيسة » ؟

يشير الى قصة كتبتها منذ أكثر من عشرين عاما باسم
« قنديل أم هاشم » •

خرجت من عنده وأنا أكاد ألطم الخدين •

(« المساء » ، ١٩٦١/١١/٦ ، ص ٨)

من ٣٧٠ الى ٤٠٠ !

بارك الله فيمن انتفع ونفع ، فأنا أحب لك أن تنتفع
بتجربتي ، ولست أضمن لك مفعولها مائة في المائة ، فالناس
تختلف • إذا كنت مثلى من المصايين بهوس القراءة ،
لا تستطيع أن ترفع بصرك عن كتاب - أى كتاب - إلا إذا
كنت - على سبيل الحصر - نائما أو سائرا أو منشغلا بتناول
الطعام • أقول على سبيل « الحصر » لكى يسرى الحكم على
أماكن قد تخجل من الاعتراف بأنك تقرأ فيها ، وعلى أوقات
يتهمك فيها الأصدقاء بالجليطة وقلة الحياء ، لأنك تحدثهم وتقرأ
في آن واحد •

وإذا كنت مثلى لا تفسر المرض إلا بأنه فرصة بديعة تتيح
لك أن تدلج نفسك وتتدلج على أهلك • تقول كل خمس دقائق
اغلقوا النافذة إذا كانت مفتوحة ، أو افتحوا النافذة إذا كانت
مغلقة • وتقول كل ساعة : اعملوا لى كوبا من الليمون • وتقول
كل ساعتين : أين البودرة ؟ غيروالى الفانلة وملاية السرير ووش

المخدة • أين الكولونيا ؟ وتقول ساعة الغداء : أين الدجاجة
المسلوقة ؟ وإذا حل العشاء هل اشترتكم التفاح ؟

وجع الدماغ فرصة بديعة للهرب من كل شيء يدعو الى
وجع الدماغ • فما تطل مشكلة برأسها الا قلت : عن اذنكم أنا
تعبت قليلا وأريد أن أستريح • نلت ما تريد دون لوم أو تقريع •
جميع المطالب المالية مؤجلة ، همها وقع على اكتاف غيرك •

إذا ضمنت مثلى هوس القراءة ودلع المرض وسألتنى : ماذا
أقرأ وأنا مريض ، أجبتك من واقع تجربتى هكذا :

من ٣٧ الى ٣٨

ثق أن الصحف اليومية لن تسليك ، بل ستصيبك بارهاق
شديد ، والبركة أيضا في الحروف الجديدة المكعبة المنسمة •
كل مشاكل العالم ستبدو لك تافهة تتضاءل بجانب مرضك
الضئيل الذى تحب أن يتضخم فيتضخم • يخيل اليك أنك قرأت
الكلام ذاته أكثر من مرة ، وستشعر ، لأنك تتنفس بضعف -
هكذا تزعم - أن كتاب اليوميات يحزقون حزقا شديدا ، وأن
عملهم عكس للمنطق • انهم يصبون في المطبعة كستباناً من العصير
فتخرج لك من الطرف الآخر مصاحبة ابشة قصب تعرش حولك
وتلم عليك ذباب الأرض كله • ستجد الكلام مجرد شقشقة ،

وأن الخوف من الحرب حكاية قديمة قد باخت وشاخت وحقت
احالتها على المعاش ، وأن لا ضير عليك من اغفال الاطلاع على
آخر أخبار مؤتمر جنيف . . نم وقم ، وقم ونم كما تشاء ويشاء
المرض حتى ولو امتد السنين الطوال ، فانك ستجده منعقدا عند
شفائك . كم أتمنى أن أشتغل مندوبا في مؤتمر جنيف !
أما البواب الذي قتل سيده الفرديانة فانت تعرفه منذ كنت
صبيا صغيرا .

ثم أنت يا أخى لست قارئ صحف فحسب ، بل أنت فى
الأصل وفى الصميم قارئ كتاب - أى كتاب - لذلك أنصحك
أن تنتهز الفرصة وتقرأ الروايات النهرية الطويلة التى لم تجد
من قبل وسط مشاغلك وقتا لتجرعها . خذ ثلاثية نجيب محفوظ
أو « الأرض » للشرقاوى ، أو « الساقية » للصاوى وكيل
الوزارة ، أو « الرجل الذى فقد ظله » لغانم .

لست أريد أن أفاضل بينهم ، أو أن أدبج مقالا فى النقد ،
ولكنى لو كتبت لك الروشتة لما ضمنتها الا الدواء الذى جربته
أنا ونفعنى وقلت فيها : جرعة كبيرة من ثلاثية نجيب محفوظ
على الريق وبين كل أكلة وأكلة - أحتفظ بزجاجة الدواء تحت
المخدة ، فهى التى احتملتها وهى التى أسعدتنى ، بل انى أشكر
المرض الذى أتاح لى قراءتها . انه كان من بين جميع أمراضى
أخفها دما ، لأنه أقلها عدااء للنفس .

وجدت أكبر راحة لأعصابي وبدني وذهني في هذا
الأسلوب التقريرى البديع الذى يدنى جميع السماوات الى
مستوى يدك حتى تستطيع أن تلمسها دون أى مجهود منك
ودون أن تصاب روحك برجة عنيفة مزلزلة • حتى الدموع التى
ذرفتها وأنا أصعب « الست أمينة » الى بيت أمها بعد طلاقها ،
وأنا أسير مع « كمال » وراء نعش لا يعلم أنه يضم حبيبة
عمره • • هى دموع رقراقة تزول بمجرد أن أمسحها بطرف اصبعي
من تحت جفني ، حزن مهذب جنتلمان يشجيك بكل أمان ولا يضر
المعدة ولا القلب • الكلام كالماء الزلال سهل بلا تعقيد ،
لك أن تمزقه به ، أو تحتسيه على مهل ، أو تشربه وفمك يعب
منه عبا •

سيزداد حمدك لسهولته اذا كنت قد قرأت قبل مرضك
شيئا لبشر فارس • • والتفاصيل التى يعرضها « نجيب » هى
الوسط المثالى بين « اللت والعجن » وبين « اللبيب بالاشارة
يفهم » • أسلوب له قدرة هائلة على أن يمشى مع كل انسان
حسب خطوه • وعلى ذلك قلم يترك نجيب في نفسه حاجة لم
يقلها ، بل جعل قصته كلها خطأ متصلا ليس فيه عقد ولا مطبات
ولا محطات لا يمكن الوقوف قبل بلوغها •

لذلك كنت أقرأ الثلاثية وقت مرضي وأنا مستريح كل
الراحة • أقرأ قدر طاقتي فاذا تعبت وقفت دون أن أحس بلهفة

على ما فاتنى • والعجيب أنتى مع ذلك كنت أحس إذا عدت
لها أنتى كنت فى شوق شديد إليها ، لأنها تأخذنى من جديد
بين أحضانها بكل حنان ، هذه هى براعة نجيب ومهارة فنه
المهذب • انه لا يهجم عليك بمخالب وأنياب ، بل، ينفذ الى
روحك نفاذ أبخرة الخمر ، لطيفا مترفقا مهذبا • انه يملكك دون
أن تحس أنه يأسرك أيضا •

من أجل هذا لم أنصحك أن تقرأ فى هذا النوع من
المرض « اللص والكلاب » ، فأنك لن تستطيع أن تلقىها من
يدك الا اذا فرغت منها وشعرت أنك تجرى وتلهث كالكلاب •

من ٣٨ الى ٣٨٥

لا صبر لك على الأسلوب التقريرى والمطولات ، أنت
تريد كلاما كالملبس يحلى فمك دون أن يزحمه ، وتستطيع أن
تمصه وتقرقشه لأنه صلب هش معا ، فأصلح شيء أنصحك به
عن تجربة هو أن تقرأ ديوانا من الشعر الحديث ، فهو سهل
القراءة خفيف الدم • لا تشغلك القصيدة — وهى من عدة
صفحات — الا دقائق معدودة لأن كل سطر كلمة أو كلمة ونصف،
شكلها شكل الاستمارة !

وستعينك خلخلة صواميل عقلك قليلا من أثر الحمى أن

ينفذ من خلالها اليك بعض معانيه العميقة التي يشق فهمها على
الأصحاء ، وتكون مسارعتك الى الانبساط أضمن اذا كنت من
أحباب صديقي الأستاذ اسماعيل النقيب - بدار « أخبار
اليوم » - وأهداك نسخة من ديوانه غير المطبوع الذي جعله
تريقة بريئة خفيفة الدم على الأنواع الرديئة من هذا الشعر
الحديث • من روائع ديوانه القصيدة التالية •

المعزة الحمراء

في المزارع الخضراء

معزة حمراء

تأمل في الفضاء

في الوحدة الخرساء

ماء .. ماء

ونسيم يأتي من بعيد

حلو كالنشيد

منذنة

وربح هب من المنزلة

وسمكة القرموط

في بحر غويط

ووطاويط
في المحيط
تقاطع الطريق — يا حبيبي !

من ٣٩٥ ر ٤٠٥

دمك يغلى ، الفاظك ذابت فوق النار في عجينة واحدة ،
وليس في العجين روابط ولا تسلسل . كلامك أصبح خطرقة
بليغة بدون معنى عند الأصحاء ، ولكنها عندك أفصح تعبير عن
موضوعيتك .. كأن المحرومين من الكلام كلهم — أحياء
وأمواتا — قد وجدوا في فمك مخرجا لكتبهم ، فألقى كل واحد
ما عنده القاء حجارة من كيس .

ومن وراء هذا السيل المنهمر غير المفهوم نطق أخرس
لرصيد من الآلام والأوجاع والأشواق والصبابة لم تصب قط
من قبل في الفاظ ، فأنت في هذه الحالة أصلح قارئ للأدب
السيرالي ، أحدثك عن تجربة . ظلت معي مسرحية « في انتظار
عودة ربو » لصامويل بيكيت شهورا طويلة وأنا مصمم على
قراءتها وحاشد كل جهدي لفهمها . وكما يفعلون بالجواد قبل
السباق كنت أريح نفسي في التنزه والترفيه استعدادا للجلسة
التي أتناول فيها المسرحية ، حتى لا أتهمها بأنتى لا أفهمها لأنتى

متعّب أو كسول أو سارح الذهن • ومع ذلك قرأت صفحة
أو صفحتين فلم أفهم شيئاً • وعدت من جديد الى « الريحيم »
القديم وتناولت المسرحية من جديد ، فاذا بها تزداد غموضاً •
المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين : إما أن يكون المؤلف مخبولاً
أو آكون أنا المخبول •

فلما قرأتها وقد بلغت درجة الحمى بمستوى ٣٩.٥ هالتي
أنتى فهمتها بسهولة ، بل وجدتها آية في البلاغة والذكاء •
هزنتى مأساتها الى درجة القهقهة التي تسيل الدموع ، وأنحت
على نفسى باللائمة وأزريت بها لأنى لم أفهمها وأنا صحيح • كيف
حدث ذلك • وأصبحت المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين :
إما أن يكون المؤلف وأنا من المخبولين أو يكون المؤلف وأنا
من أحكم الحكماء وأعظم الفلاسفة • وطبعاً فضلت الفرض
الثانى • • لأنه كان واضحاً كالشمس •

هذه هى مشكلة المدرسة السيريالية • ان عملها يعتمد على
التمزيق ، وأدواتها هى الأسئلة ، ومنطقها هو الخطرفة ،
لأنها تابعة رأساً من النفس الانسانية فى عز انتقادها وبغير زيف
أو خداع • انها تبصق على كل القواميس وكتب النحو لأنها
تعتقد أن ضمير الانسان قادر على الكلام بصوت أخرس ،
لا لغة له ولا نحو ، ينفذ الى النفوس فيرجها رجاً شديداً •

وكان من دلائل شفائى من مرضى الذى أقعدنى فى الفراش

هذه الأيام الأخيرة وحرارتي ٣٩° أتى استطعت أن أترجم لك منولوجا في هذه المسرحية ينطق به رجل هو رمز للانسان الأسير في يد الظلم الاجتماعي ، الضائع في الكون ، لا يفهم شيئا ، ولا ينقطع تشوفه للفهم . أترجمه لك لأتى حين قرأته في درجة ٣٩° كنت أقهقه من تريقته على كلام الفلاسفة والفقهاء ، وباطن التريقة حزن شديد وآلم ممض ، ومأساة الانسانية كلها :

قال « لاكى » — وهو خادم في عنقه جبل وله اسم من أسماء الكلاب : بفرض ما تنطق به المؤلفات العامة لكاني وماني من وجود اله شخصى — احم احم احم — بلحية بيضاء — احم احم احم — خارج عن نطاق زمن بلا مليانه ، وقداسة سليانه يحبنا حبا شديدا مع وجود استثناءات لأسباب مجهولة ، ولكن الزمن سيكشف عنها ، وهو مثل أمونه المؤلهة يتألم مع كل الذين أطيح بهم في النار ، من نارها وسعيرها اذا طال بهما العمر . وهل في ذلك شك سيحترق الكون بمعنى اندلاق الجحيم على السماء ، ما تزال زرقاء ساكنة كل السكون بسكون وان يكن منقطعا الا أنه أفضل من لا شيء . مهلا مهلا ، ونظرا لما هو أكثر من ذلك تشهد المؤلفات التي لم تتم والتي خلفها شرم وبرم للأثروبوبولوجيا ، بأنه نبت بدون وتوجهها المجلجلجلجس الأعممل كل شك الا الشك العالق بأعمال الانسان أنه نتيجة

للمؤلفات التي خلفها كاني وماني دون اتمامها ولأسباب مجهولة
من ينكره الكثير من أن الانسان عند شرم وبرم أن الانسان
ياختصار أن الانسان في كلمة وجيزة بالرغم من تحسن الأكل
والهضم يذوب شوقا وضياعا ثم يذوب شوقا وضياعا » .

للمونولوج بقية طويلة أؤكد لك أنني ترجمتها أيضا
ولكني أضيف منها الآن . على كل حال أقترح على « مسرح
الجيب » أن يقدم هذه المسرحية في الموسم القادم ، وينص في
الاعلان : « ممنوع الدخول الا لمن كانت درجة حرارته
٤٠ ° » !

(« المساء » ، ٢٧/٨/١٩٦٢ ، ص ٨)

حماقة ..

كان يوما لا أدري بوجه من تصبحته ، فلم يخرج من يدي
الا أن أقوم من ارتكاب حماقة سخيفة لأرتكب حماقة أشد
سخفا ، أول محاولة للبحث عن تفسير معقول - والبحث في
الحقيقة هو عن تبرير واه جدا يسمح خجلى وينسينى جراحى -
ان قلت لنفسى : لاشك أنك كنت فى ذلك اليوم الأغبر فريسة
اعياء شديد • ركبت منذ أن استيقظت • والاعياء على الصبح
ألعن من الاعياء آخر النهار • الاعياء يخرس صوت العقل
والحكمة ويفسد الاتزان • • وأكثر جرائم العصر ليس مرجعها
الانفعال أو العنف ، بل الاعياء ، « فالغريب » فى قصة ألبير كامى
لم يقتل لأنه كان منفعا ثائرا ، بل لأنه كان مصابا بأعياء ووحى
أورثه زهقا شديدا • • من الناس كلهم • من الحياة كلها • •
لا وصف لجريمته الا بأنها كانت حماقة كبيرة • ولحسن الحظ
كانت حماقاتى صغيرة ، لأننى لست بطلا ، لا فى الحياة ولا فى
قصة ، والا لكنت قد قتلت أنا أيضا - ربما - فى ذلك اليوم
الأغبر •

ورغم الاعياء بقيت لى والحمد لله مسكة من العقل * فلم ينظر على هذا التفسير ، هذا التبرير ، وقبلت أن أواجه الحقيقة ، ولو كرهية .. أدركت أن مرد حماقاتى الصغيرة هو طبع أغاليه منذ أن وعيت لنفسى فلا أغلبه بضربة قاضية ، ان صرعته أحيانا صرعنى أحيانا .. وحين أدركت ذلك لم يكن ندمى على ما اقترفت بأقل من حسرتى بأن العمر الطويل الذى قطعته والتجارب العديدة التى حصلت لها تقتلع هذا الطبع من جذوره ، وكانت جداتنا تقول : طبع الانسان لا يفارقه الا على ليفة المغسل .. أى عند باب القبر *

حاشا أن أزعم لنفسى فضيلة أتجمل بها وأزهو ، فأدعى أن مرد هذا الطبع هو وثوق متأصل بلا برهان ورغم الدروس التى تدحضه بأن الناس كلهم مجبولون - مثلى ! - على سماحة النفس .. على افتراض مبدأى احسن النية لا لسوء النية فى كلام الغير وتصرفاته * فلو كان هذا هو الحال لما عد ما ارتكبته حماقة .. الحقيقة الكريهة التى واجهتها ان مرد هذا الطبع هو تضعف سخيى مستخذ وانهازام سريع أمام الميل الى فتنة الاعجاب بالنفس .. أى توهم قدرتها على الانفراد - فى زعمها - بالتحدى تلقائيا بميزة لا يبلغها الغير - ان بلغها - الا بمشقة ، بإبتكار ما يعجز عنه الغير ، ولكن - صدقنى - أنتى أتحمامل على نفسى ، كمادتى ، فلم آكن فى ذلك اليوم الأغبر الا ضحية

قلمى ، وهو منساق كالأعشى مع تصارييف اللغة ونزواتها ، فالذى ارتكب الحماقة هو لا أنا ، وكل كاتب يعلم : كما هناك زلة لسان ، هناك زلة قلم •

دعنى أروى لك ما حدث :

كنت أكتب مقالا أريده أن يتصف بالظرف لكى لا أثقل على القراء • وأعجبني هذا الظرف فغفلت عن قلمى وهو منساق مع تدفق اللغة وإيحاءاتها فاذا بالظرف ينقلب الى نظرف مفتعل • أقرع • • فجاء قميئا باردا سميحا ، دمه كالبق ، وائساق قلمى بسبب هذا التطرف المجوج فخرجت منه نكتة سخيصة جدا ، لا أدري كيف رضى أن يكتبها أو أن يسكت عليها بعد أن كتبها فلا يشطبها ولم أتبه فوق ذلك الى قدرة هذه النكتة السخيصة على اصابة الأبرياء •

ودهشت أبلغ الدهشة حين حدثنى صديق أعزه وقال لى ان عشرة أشخاص على الأقل حملوا اليه هذا المقال وقالوا له وهم يضعون الأصابع السبابة على النكتة المكتوبة : انظر ، انه يقصدك ، هذه هى حقيقته • • خذ حذرک منه وان زعم أنه صديقك •

وصديقى لحسن الحظ رجل كريم ابن ناس • فزجرهم وقال

لهم : لا شأن لكم بما بينى وبينه ، أنا أدري به منكم .. كم كنت
أتمنى أن أرى وجوههم حينئذ ، أظنها علتها حمرة الكسوف
والخجل ؟ • هيهات ! • يارب .. لماذا يتطوع أناس بالوقية
بين الناس .. يظنون أن هذه الوقية سلم يرقون به الى
الفوز بصداقة من ورائها منفعة ، ولو كان كل الناس كصديقى ..
هيهات .. لهوا من هذا السلم حقراء أدنياء فتندق على
الأرض رؤوسهم المساوية كالبطيخ الفاسد • ولكن رؤوسهم
لا تزال سليمة كالزلط لأنهم وإن كثروا ، فأمثال صديقى قليل •

الحماقة الأخرى التى ارتكبتها مردها أننى أفرطت فى
الحماس - كما أفرطت من سابق فى التطرف - فوقعت هذه
المرّة فى التهور .. كان ذلك فى حديث عن رجل أجنبى رأيت
يتولى عنا خدمة الخط العربى والعناية به ، أعترف بأننى مطبوع
على التعصب والغيرة الشديدة فى كل ما يمس أمتى ، لا أرضى
الا أن تقوم نحن بما هو واجب علينا ، لا نقعد فننتظر أن يتولاه
الغير عنا ، استسلمت للانفعال والحماس ، وبالغت فى صب
قوايم اللوم على هذا القعود منا ، من فرط التحمس وقعت فى
التهور .. فأثكرت جهودا كثيرة بذلت عندنا ، غمطت حق
أصحابها ، ظلما منى ، وكان ينبغى أن أثوب للرشد فأشيد

بفضلهم وأشكرهم ، ، وأفلتنا من الشعوب التي تهيم بتعذيب
أنفسها بالنقد المرير والاستخفاف بكل ما تفعل •

أنصحك اذن - وان وثقت أن نصحي سيضيع هباء عندك -
لا تفرط في التطرف السمج ، وأن لا تفرط في الحماس لئلا تقع
في التهور الأحمق •

(« التعاون » ، العدد ٢٨٥ ، ١٩٧٠/٧/٥ ، ص ١٠)

لقاء الحياة . .

فى التحول من الصبا الى الشباب حين بدأت أستفيق للقاء الحياة ، وأتأمل فى وجوه الناس ، وأقول أين طبعك من طبائعهم، هذه المحاولة للاندماج فى المجتمع تستحق أن توصف بأنها عصبية ، لأنها تجرى فى سراديب النفس وسط أسرار ووراثات مجهولة ، وغالبا بلا وعى بها ، وبدون ارشاد من أحد وبلا سند من التجربة ، ومع ذلك فسيطفى أثر هذه الفترة القصيرة العابرة على بقية العمر كله . من ذلك اللقاء تخلف فى ذاكرتى احساس أمض قلبى حينئذ بأن الناس ينقسمون الى ثلاثة أنماط .

نمط تتمثل له الحياة فى صورة قنيصة ممتنعة مأكرة ، لا تؤخذ مواجهة دون رضى منها واستسلام ولا تؤخذ غلابة ، وفى وضوح النهار ، بعد قياس قوة القانص بقوتها فى معركة شريفة تستنكر الغدر . وانما تؤخذ بالالتفاف من ورائها ، بالحيلة والمؤامرة . ليس هذا فحسب ، بل يحس هذا النمط أيضا أنه يسلب هذه القنيصة لنفسه من يد الغير ، لو فتشت صدره

لوجدت فيه ضمير اللص • ليست المعركة بقياس القوى - ثنائية
بين القانص والقنيصة ، بل ثلاثية بقياس المكر - بين مكر
القانص ، ومكر القنيصة ومكر بقية الناس •

يوصف هذا النمط بأنه حويط ، ماء من تحت تبن ، أزرق
الناب • ورأس الفضائل عنده في الصمت والتكتم والمداواة ،
والشك والريبة والحذر • كلامك اليه مهما كان بريئا وجاء
عفوا من غير سابق تدبر ، حتى في أتفه الأمور ، تتلقاة أذن له
تبدى الذكاء - بمعناه اللغوي ، وتتلقاه الأذن الأخرى - وهي
تبدى البلاهة - بالفحص والامتحان والتقليب على الجنين
لتعرف ما تحته وما وراءه ، لأنه مؤمن أن كل الناس مثله •

تستطيع أن تقول أن هذا النمط مصاب بحول لا في عينيه
بل في أذنيه • باب بيته لا يفتح مباشرة على الحوش المكشوف ،
بل على ممر مستوف طويل يتعرج ذات اليمين أو ذات اليسار
قبل الوصول • وغلق النافذة الذ على يده من فتحها •

ليس هذا حاله مع الدنيا فحسب ، بل مع الآخرة أيضا ،
فقد أحسست أن الجنة عنده هي أيضا قنيصة تؤخذ بالمكر
والحيله ، الشريعة نصوص للظواهر لا لبراس للقلوب ، والتدين
مغامرة مضمونة : أن صدق الوعد فقد كسب وخسر غيره ،
وإذا لم يصدق فلن يخسر شيئا ، سيكون مثله مثل بقية
الناس •• لن يكسب أحد شيئا دونه •

والنمط الثانى عنده أن الحياة هى عملية نصب كبيرة • انها مسرحية عالمية : وراء الستار تيه بلا حدود أو معالم ، ليس به ساعة تدق ، وفيه حشد من المخاليق الغلابة ، كلهم سواء فى المنشأ والمصير • وأمام الستار حيز محدود مكانا وزمانا • • هذا يقوم بدور الملك ، وهذا بدور الخادم • هذا هو الضاحك وهذا هو الباكي ، أبطال وكومبارس • ولكن كل هذا لعب فى لعب ونصب فى نصب ، وعما قليل سيسدل الستار ويتلع التيه كل الممثلين ، فاذا هم من جديد جملة من المخاليق الغلابة ، كلهم سواء فى المنشأ والمصير • ولا يكفى هذا اللعب كله ، بل المسرحية ذاتها غير مفهومة لا معنى ولا فرضا ، ومع ذلك لا ينقطع تمثيلها ليلة بعد أخرى ، وتقابل بالتصفيق والصفير معا •

وهذا النمط لا يعيش الحياة ، بل « يمثل » أنه يعيش الحياة • انه نمط مأساوى • فى القلب ضياع ، وعلى الشفاه ابتسامة الاستخفاف • هذا النمط هو عادة ظريف ، خفيف الدم ، بحبوح ، مستهتر ، فضفاض ، متلاف سكير ، يكرهه عنف الدهاء ، بل فرط الذكاء • المحنة عنده هى الفصل الأخير فى المسرحية ، مؤجل تمثيله لما بعد ، لا داعى لأن يشغل به نفسه الآن • ولكنك اذا فاجأته بسؤالك : من أنت وماذا تفعل ؟ لحار ولم يستطع أن يجيبك •

والنمط الثالث عنده أن الحياة حيوان ضخمة ، وأنه هو

وليدها ، حيوان مثلها ، هي أكل وشرب وتناسل ، كل متعة أخرى
إذا لم ترتد الى لذة حسية فهي هراء . قد يكون من خريجي
أكبر المعاهد ولكن لغته ستظل دائما هي لغة الحواس ، والجنة
عنده دوام نسيانه بين لذائذ الدنيا الحسية .

تبينت هذه الأنماط فانقبض قلبي . أحسست أنها تخدعني
عن الحياة . كنت واثقا أن الحياة في حد ذاتها متعة ليس كسلها
متعة . ولكن يهدرها ويفسدها ويثلم شرفها أن تؤخذ بالحيلة
والمكر والمؤامرة . كالنمط الأول . أو بالنصب وتمثيل دور
من الأدوار دون أن أعيشه كالنمط الثاني ، أو أن أعيشها معيشة
الحيوان . كالنمط الثالث .

ان أردت تعلم هذه المتعة فينبغي لي أن أثبت أني أنها أكبر
نعم الله سبحانه على ، وأن ألقاها رافع الرأس وجها لوجه ، لقاء
حبيب بحبيب ، وتمنيت أن لو أصبح شاعرا يتغنى بالحياة .
وما ألد أحلام الشباب .

(« التعاون » ، العدد ١٧٤ ، ١٩٦٦/٦/١٩ ، ص ٨)

مجرد ظهور ..

كم عمر التلفزيون ؟ لم ينفع مر الزمن الطويل ولا الالف والعادة في تهدئة عنف هذه الهجمة ، انها لا تزال تتكرر معى بنفس الشدة وصدق الوفاء لم أظهر فى التلفزيون مرة الا كان حتما أن أقع من غد - وربما على الريق - فى هذه التجربة القاسية ، يلمنى فى الطريق أحد معارفى القريين أو المتطوحين فيهم على ، وقد ينتقل جريا من رصيف الى رصيف معرضا نفسه للدهس ويوقظنى من سرحانى ويشد على يدى ووجهه متهلل بالبشر والفرح كأنه يحمل الى أجمل تهنة على فوز عظيم :

— رأيتك أمس فى التلفزيون ..

يتملكنى حينئذ شعور غريب ، كما تملك الأرض فى تلك اللحظة قدمى المسمرتين ، نصفه تبليم ، لاشك أن فى أصبح نصف مفتوح انفك رباط شفتى السفلى ، اندلق دلو من البلاءة على وجهى ، لسانى يحاول أن يعثر على كلمة غير بائخة فلا يفلح ، لا أدري ماذا أقول له ؟ هل أقول متشكر ! أشكره

على ماذا ؟ من الغرور أن أشكره لأن عينه تكحلت برؤية طلعتى البهية ، ثم — يا أخى — لكن من الذى ينبغى عليه أن يشكر الآخر ، أنا أم هو ؟ ها أنذا أهرب من الغرور فأقع فيه بلا وخز من الضمير ، وكل مغرور يزعم أن ليس فى العالم رجل حقانى مثله ، أم أقول له : طيب يا سيدي ، وماذا جرى فى الدنيا أم للدنيا ؟ فأجابه بتقريع مهما تستر بالأدب أو المزاج فانى أكرهه لنفسى ، لست قواما على الناس حتى أوزع عليهم التقريع بالعدل والقسطاس ، وأشد الناس ارهاقا للأعصاب هم الحنابلة القوامون على الناس . انى أحب المثل البلدى القائل « واحد شايل دقته ، وانت تعبان ليه ؟ » وان كنت لا أدري معنى كلمة شايل هنا ؟ أهى مخلوقة هذه الذقن ، أم مرفوعة فى الهواء من الكبر والخيلاء ؟

ونصفه احساس بالحسرة ، أظل أتطلع الى وجهه وأحلق فى عينيه مستجديا عبارة تثليج صدرى بضيفها على هذا الخبر العظيم ، خبر رؤيته لى فى التليفزيون ، أستجدى منه أن يقول لى : وكان كلامك حلوا وأفكارك رائقة ، أو حتى أن يقول : وافقتك على رأى وخالفتك فى رأى ، أو حتى — والله العظيم — أن يقول : كان كلامك زفتا وآراؤك قطرانا ، فأنا لم أذهب للتليفزيون وأنا مصاب بالخرس ، لا لشيء الا لأن تظهر الناس طلعتى البهية ولا أنبس بحرف ، بل ذهبت لأتكلم ، لأقول شيئا

نافعا في ظني ، أملا أن يكون كذلك في حكم الناس ، الناس
العقلاء طبعا ! الذين يفهمونها وهي طائفة •

نظرتي المستجدية منه ولو قرشاً لا تظفر منه جتى
ولا بمليم ، أتنازل عن آمالي الكبار وأستجدي منه ما هو دونها
بكثير ، ما دام أن فرحته برؤية طلعتي البهية قد جبت عنده كل
مقدرة على السمع ، ولا أقول على الفهم ، فلا أقل من أن يقول
لى : وكان وجهك مشرقاً كالبدر ، أو حتى : لحظت أنك كنت
متجهماً مقطب الأسارير فلماذا ؟ أو حتى - والله العظيم - كنت
كالأعمش في غمرة الضوء ! لازلت أحفظ له انسانيته فلا أتوقع
منه أن يهبط الى الدرك الأسفل من حماقة فيكلمنى عن أناقة
بذلتى وشياكة رباط عنقى ، أو اختلاف العصا التى أحملها
معى كل مرة من جلسة الى جلسة ، ثم يخامرنى الشك في هذه
الانسانية حين أتهرب من فهم نظراته وأنا أهرب منه ، انها تكاد
تنطق بلمحات من جوع مرير أو مرارة جائعة ، هذا هو سر
لمعانها ، كأنه يغبطنى على فوز ثلته ولم ينله هو بعده .. هذا الفوز
العظيم هو الظهور في التليفزيون .. مجرد الظهور ؟

هل ظلمته ؟ ربما انتقل اليه الهوس بالعدوى البصرية ..
فهو معذور ، فلعل أغلب الذين يظهرون في التليفزيون تترنج
أعطافهم بفرحة الظهور في التليفزيون ، مجرد الظهور ، بذلة
التليفزيون هي بذلة الأعياد ، السوداء المخططة أو الكحلى
المنغمشة ، ورباط الرقبة تم شراؤه في اليوم ذاته ، والحذاء

لميع ، والجلسة بحساب واللفتة بتقدير ، والتخشب على أتمه ،
حتى الأطفال في برنامج « ماما سميحة » يتزاحمون بالمناكب
ليتحقق لهم الفوز العظيم .. الظهور في التلفزيون مجرد
الظهور •

بل قد قبل بعض من أكبرهم وأجلهم أن تستذاهم خيالاتهم
قبل الجلوس أمام العدسة في برنامج أدبي في العلالى يعنى عن
سارتر أو بيكيت مثلا ، فالى اليوم لا أزال أذكر شهقتى حينما
قابلت صديقى هذا ذات مساء في دهايز التلفزيون ، فقد خيل
الى أنه أصيب فجأة بارتفاع مخيف في ضغط الدم ، أو أن
مرضا جلديا عجيبا قد طفق على وجهه فأصبح لونه لا هو أصفر
ولا هو أحمر ولا هو أبيض بل بين بين ، لعغل أصدق تشخيص
أنه أصيب لتوه بفقر شديد في الدم ، فحول عينيه هالات سود ،
وأنا لا أعرفه يكحل جفنيه .. هجمت عليه أقول له : مالك
سلامتك ، دعنى اصحبك الى البيت .. فاذا به يتسم لى ويقول:
— قيل لى أن المكياج ضرورى لأجل أن تكون صورتى
طبيعية ..

فقلت له وأنا أكنم خيبة أملى : طبعا ، طبعا !!

(« التعاون » ، العدد ١٣٩ ، ١٧/١٠/١٩٦٥ ، ص ٨)

المهنة ..

حكم كثيرة موروثة ، عملة متداولة ، ولكنها عند تجربتها تبين أنها من قبيل (الماركة) التى يصطنعها صاحب القهوة لحاسبة الجارسون دفعة واحدة — لا بالقطاعى — بعد التشطيب ، (ماركة) مستديرة تنوب مناب قيمة كوب من الشاي (وماركه) ، مضلعة تنوب مناب قيمة شيشة حمى لا يريد صاحب القهوة أن يخون دماغه ويجد الفكة كلما مر الجارسون أمامه حاملا طلب الزبون ، من السياسة والراحة تأجيل ساعة الحساب • ساعة يتبين المكسب من الخسارة ، ما أحلى التعامل بالوهم ! .. ولكنك اذا ذهبت بهذه (الماركة) الى السوق ونزلت الى معركه الفعلى الرهيب لما وجدت بائعا يقبلها منك ، أو حتى صرافا يفكها لك ، ليفك زنتك .. حكم كثيرة هذه حالها ، صالحة طالما بقيت خارج السوق ، باطلة ، فالصو .. داخله — رغم بريقها — ربما بسبب بريقها .. دلالة على أن تداولها كان بغير دعك وامتحان ، كل ما أريد لها من صنعها هو فض مجالس ، أو اغلاق فم ثرثار ، أو نقض اليدين من عناء الحساب ، والتهرب من المواجهة •

وقد تعلمت الاحتراس من هذه الحكيم التي تشبه (ماركة)
صاحب القهوة .. كالحكمة القائلة : « من فكر في بلوى غيره
هانت عليه بلواه » ، فهذه الحكمة تقفز الى ذهني ويردها
لساني على الفور كلما أخذ انسان يشكو لي هما له ، بدلا من
أن يهز رأسه اقتناعا بها ويطيب خاطره ويشكرني عليها أحس
انه امتلا بمرارة يأس تضاف الى همه ، جلله بواخ هيهات
أن يغفر لي أنتى سببه ، نطقت نظرتة بالغيط ، وربما بالكراهية ،
هذا - أولا - وقع النصيحة على النفوس .

وكل الحكم مصوغة في قالب نصائح ، يد الناصح هي
العليا ، كأنها تملك الكون ، أين كل عقل وحنكة من عقلها
وحنكتها .. ويد المستنصح هي الدنيا .. فارغة ، مفلسة ،
سقيمة ، ذليلة بكونها غناجة ، لأنها محتاجة .. فكيف لا تكره
اليد الدنيا اليد العليا التي تتعاطم عليها .. شاطرة لأنها على
البر ، ثم - وثانيا - يقول لي الشاكي في سره : جئتك بسرطان
فوصفت لي قرص اسبرين .. وما شأني أنا بهوم الآخرين ،
هي ظن والثابت هو همي ، همي أنا ، طمعت أن أجد عندك
الفرج لا نكدا فوق نكد .. بتحميلي أيضا هموم الآخرين ..
المخرج عنده من مأزقه أن يلجأ الى التحدى . تقول لي نظرتة
بجراحة مفتعلة انه مستعد لأن يبادل همه بأى هم للآخرين ، اذ هم
خيابة ، أما هو سيعرف كيف يختله ويكسر شوكرته .

ما نلت من استخدام حكمة « من فكر في بلوى غيره »
الا أنني خسرت صاحبي بدلا من أن أكسبه ، فأعتمد الاحتراس
من قادم مع غيره ، ولكنني أقع دائما في عين المطب •

جميع المقدمات مجعولة للفضفضة بمخزون من فلسفة
فارغة ، شبيهها صوت يصك الآذان ويزكم الأنوف ، وفي أغلب
الأمر لا علاقة لها بصلب الموضوع ، لهذا أقرأ كتباً كثيرة بعد
عدة صفحات من الفصل الأول •• لأن المقدمة لا بد ساحت
عليه أيضا ، فاعفر لى ما تقدم من ذنبى وسخافتى وتعال الآن
بكلام خفيف لجعل الحكمة أياها مثار ابتسام لا مثار فلسفة ،
فهى تشب لذهنى فابتسم كلما كان الطلب منى أن املا استثمار
لاستخراج بطاقة أو لتسجيل نزولى فى فندق ، أجيب على
سؤالها عن اسمى وتاريخ ميلادى بسهولة ، لا عن يقين بل عن
اصطلاح بينى وبين الناس لا ينقضى تشكى فيه وعجبنى منه •
فاذا جئت لسؤالها عن « المهنة » تردد القلم فى يدى ونظرت
فى وجه من يناولنى الاستثمار فى بلاهة وخجل •• يا لها من
بلوى ، حينئذ أعمد لتهوينها على نفسى الى التفكير فى بلوى
الآخرين ، بلوى الصديق صلاح طاهر مثلا لو كان مكانى ••
ماذا يكتب ؟ • هل يقول « فنان » فيحسبه مناول الاستثمار
مثلا أو مخرجا للمسرح أو السينما ، وربما يحسبه أيضا من
طقم الراقصين فى فرقة للفنون الشعبية ، وفيهم من لا يقل كرشه
عن كرش صلاح الآن •

ليس في لغتنا اليوم كلمة عائمة مبهمة مختلطة سايحة مثل كلمة « فنان » .. اذن هي لا تصلح .. هل يقول « رسام » ؟ .. هذه الكلمة خرجت من التداول ، اختص بها رسام المساحة الذي يقيس حدود الأطباء ، واذا توكل على الله وقال : مصور .. فهل يضمن ألا يجيئه سؤال : مصور فوتوغرافي حضرتك ؟ .. هل يمكن أن يجيبه : لا بالزيت .. أو بالفحم ؟ ..

حالي مهمسا شق أخف من حاله ، أفكر في بلواه فتهون بلوتي ، الحكمة اياها تفت هنا .. فأنا أتردد رغم الابتسامة ماذا أقول .. هل أقول « كاتب » فلا أضمن أن يجيئني سؤال : كاتب حسابات ؟ .. كاتب طبونة ؟ كاتب عمومي أمام محكمة ؟ .. أم أقول : أديب .. الأدب صفة .. فهل يصلح أن يكون صنعة أو مهنة .. هل الأدب ثوب ألبسه عند الشغل ثم أخلعه عند الفراغ .. وماذا يبقى على جسدي ؟ .. قلة أدب .. أم أقول : « مؤلف » فأعرض لخيبة الأمل اذا تفت لمناول الاستمارة بعد سؤاله أنتي مؤلف أغاني ، ورأيت أن احترامه لي قد قل .. فأنت ترى أن لا مهنة لي تصلح للكتابة في استمارة .. وأخيرا اهتدي الى الحل وأكتب « بالمعاش » لا أقصد أنتي كنت موظفا ثم بلغت الستين ، بل انتي لا أزال أعيش .. وهي مهنة حلوة ولا ريب ! ..

الفهرس

الصفحة

٥	(١) من عالم الطفولة :
٧	— شقيقة الفجر
١٣	— جانب الرهبة
١٧	— طائر الرهبة
٢١	— رسائل من عالم مجهول
٢٧	— يمين وشمال
٣١	— هذا العالم الخفى المجهول
٣٧	— اللودة والانسان
٤١	— صورة مخيفة للناس والدنيا
٤٧	— انما الدروس من حوش المدرسة .. لا من الفصل
٥٣	— من كناسة الذكريات
٦٣	— وجهها لوجه
٧٣	— الموت
٧٧	(٢) من ذكريات الحجاز
٧٩	— يا جحا .. ودنك منين ؟
٨٥	— حفلة موسيقية « كتيمة »

١٩٣

(١٢ م - كناسة الذكاء)

٩٣	من جراير الموسيقى
٩٩	هذا الشبل من ذاك الاسد
١٠٧	مناكفات . . وصفائر
١١٣	بين الروبسة وريال تيريزة
١٢١	دروس وذكريات
١٢٦	يوم الحشر على الأرض
١٣٤	ورق . ورق . ورق
١٤١	(٣) في دروب الحياة :
١٤٣	مذكرات فنان غشيم في الكار
١٥١	الزهرة والأصيص
١٥٧	اعترافات ومضايقات
١٦٥	من ٣٧٥هـ الى ٥٤٠هـ !
١٧٥	حماقسة
١٨١	لقاء الحياة
١٨٥	مجرد ظهور
١٨٩	المهنة

مؤلفات يحيى حقي

- ١ - قنديل أم هاشم - مع سيرة ذاتية للمؤلف .
- ٢ - فجر القصة المصرية - مع ٦ دراسات من نفس المرحلة .
- ٣ - فكرة فابتسامة .
- ٤ - صح النوم .
- ٥ - خطوات في النقد .
- ٦ - دمة فابتسامة - مع الدعاية في المجتمع المصري .
- ٧ - دماء وطن - مع قصص أخرى من الصعيد .
- ٨ - تعال معي إلى الكونسير - مع الكاريكاتير في موسيقى السيد درويش .
- ٩ - ناس في الظل - مع شخصيات أخرى .
- ١٠ - أم العواجز .
- ١١ - حقيية في يد مسافر - ورحلات أخرى .
- ١٢ - عطر الأحباب - مع ٢٠ دراسة أخرى .
- ١٣ - عنتر وجولييت - مع ١٠ لوحات أخرى .
- ١٤ - يا ليل يا عين - سهرابة مع الفنون الشعبية - مع مقالات السيرك والمولد

- ١٥ - انشودة للبساطة - مقالات في فن القصة .
- ١٦ - خليها على الله .
- ١٧ - صفحات من تاريخ مصر .
- ١٨ - من فيض الكريم .
- ١٩ - الفراش الشاغر وقصص أخرى .
- ٢٠ - مدرسة المسرح .
- ٢١ - هموم ثقافية .
- ٢٢ - تراب الميرى .
- ٢٣ - عشق الكلمة .
- ٢٤ - من باب العشم .
- ٢٥ - في السينما .
- ٢٦ - هذا الشعر .
- ٢٧ - في محراب الفن (موسيقى - تشكيل - عمارة) .
- ٢٨ - كنيسة الدكان .

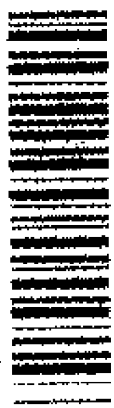
رقم الايداع ٧٧٣٢ / ١٩٩٠

الترقيم الدولي 5 - 2555 - 01 - 977 - I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

عن طريق الأنثى لا العين بدا في طفولتي احسني بملك
الحقبة الجميلة الرهيبة معا - مولد الفجر وتردد أواقي
انفاسه . قلا قيام للأسرة كلها عن الفراش . ولا تسبح
الشيش لأنه خرج للخلوة عندنا وعند الجيران .
ولا خسروا إلى الطريق إلا والشمس قد علت قصبة
ونصف على الأقل . (هذا القياس عن قبيل القحس على
أبني كنت لا أسكر الريف)

Biblioteca Alexandrina



0422307

طابع اليد اليمنى

٢٢٥ قرص

To: www.al-mostafa.com